التسامح في الإسلام

محمد أحمد حسونة بك
أستاذ التاريخ الإسلامى (سابقا)
بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد

محمد خليفة التونسى
المدرس
بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

يطلب من مكتبة الخانجى بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

مطابع
دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى



محمد أحمد حسونة بك

الأستاذ حسونة بك ومحاضرته

الجزء الأول من هذه الرسالة هو نص المحاضرة التى ألقاها أستاذنا الجليل محمد أحمد حسونة بك فى « نادى جمعية المعلمين » بميدان الأوبرا فى القاهرة مساء الثلاثاء ٤ مارس سنة ١٩٥٢ .

وقد ظل الأستاذ المحاضر يدرس التاريخ فى المدارس الثانوية والمعاهد العليا وكليات الجامعة فى مصر قرابة أربعين عاماً ، وكان آخر منصب تولاه أستاذية التاريخ الإسلامى بكلية «دار العلوم» .

وما أكثر الذين انتفعوا بدراساته التاريخية القيمة ، وهذه المحاضرة نموذج لها ولفقهه العميق بالتاريخ والإسلام معا .

ولقد حال تواضعه وحياؤه الجم بين علمه والمطبعة إلا ما كلفته أن يؤلفه وزارة المعارف المصرية لتلاميذها ، ومن أجل ذلك حرم القراء كثيراً من علمه الغزير النقى ، واقتصر على خلطائه من تلاميذه وغيرهم .

من يقرا هذه المحاضرة تتضح له معرفة حقيقة من حقائق الإسلام العالية ، وقيمة من قيمه الرفيعة ، وهى « التسامح » . ويستطيع القارىء الأريب أن يتعرف خلالها صورة « شخصية » الأستاذ السمحة .

إن كل تلك السمات تكسب شخصيته جاذبية لطيفة تحببها إلى قلوب الناس ، وتغريهم بالأنس بها ، والسكينة إليها ، وتجردهم برفق من كل عوامل التحفظ والاحتجاز أمامها . إنها شخصية

تحمل « غصن الزيتون » للناس جميعاً ، وتتولاهم بالبر والكرامة ،

ولقد حرصتُ ليلة سمعت هذه المحاضرة على تعميم النفع بها ، لما تكشف عنه من « أريحية » الإسلام ، واتساع أفقه لكل الاختلافات ، ولعل المسلمين — لاسيما فى هذه الأيام — أحوج ما يكونون إلى هذه المحاضرة وأمثالها نحو « الفلسفة القرآنية » لأستاذنا الجليل عباس العقاد ، وكذلك « عبقرياته » وما نحا نحوها من كتبه القيمة التى تعتبر فتحاً فى الإسلام وفتحاً فى التاريخ وفن التراجم (biographies) معاً . نحن أحوج ما نكون إلى هذه الكتب الآن لنشاط الإنجليز واليهود والشيوعيين ومن إليهم من أصحاب الأزياء الفكرية الجديدة فى الغرب والشرق — نشاطهم لإشاعة الفتنة .

لذلك طلبت من الأستاذ حسونة بك — متشفعاً إليه بأستاذى الفاضل محمد مبروك نافع بك أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية « دار العلوم » — كى يأذن لى بطبعها ونشرها ، فتفضل بذلك ، فلهما الشكر على ما أولياني والقراء من خير ، وأرجو الله أن ينفع بها ويكثر مثيلاتها حتى يعرف الإسلام الصحيح على حقيقته .

ولقد ضممت إلى محاضرة الأستاذ بحثا لى فى « الأسس النفسية والاجتماعية للتسامح فى الإسلام » له اتجاهها وهدفها وقد تفضل أستاذى حين علم بطبعهما معاً فطلب أن يكتب اسمى مع اسمه ، وإن لم يطلع على بحثى الذى أحمل وحدى مسئوليته ، وأرجو أن تشفع لى غيرتى على الإسلام ما تخلل بحثى من فورة والله الموفق للسداد .

كوبرى القبة فى ١٥/٣/١٩٥٢ محمد خليفة التونسى

التسامح فى الإسلام

١ — التسامح بين الشعوب :

ذكر أستاذنا العلامة الدكتور أحمد بدوى بك فى المحاضرة الفذة التى ألقاها من هذا المنبر أن آباءنا القدماء كانوا يعتقدون أنهم هم وحدهم « الناس » ، وأنه لا يستحق هذه التسمية شعب سواهم ، كذلك كان الإغريق القدماء يعدون أنفسهم « الناس » ويعدون كل من عداهم همجياً متبرباً وجاء الرومان من بعدهم على غرارهم فاعتبروا كل من كان خارج حدود دولتهم خارجاً عن نطاق الحضارة كذلك ، وكان الأمر فى الشرق قريباً من هذا : فالفرس كانوا يرون أنفسهم شعباً ممتازاً . فإذا جئنا إلى العرب وجدنا هذه النعرة بالغة شأوها ، وإليكم شاهداً منهم هو زيد ابن عدى نسمعه قبيل يوم « ذى قار » يقول لكسرى الثانى المعروف بكسرى أبرويز : « إن شر شىء فى العرب أنهم يتكرمون عن العجم[١] » أى يعتبرون أنفسهم أشرف من كل شعب آخر . وهذا الشعور عند العرب شائع فى أدبهم بحيث لا يحتاج إلى مزيد

---

(١) أيام العرب تأليف جاد المولى بك وشركائه — ص ١٩ والعرب يعدون كل من لا يتكلم لغتهم أعجمياً .

من الإيضاح . وهذا التعصب الجنسى بلغ فى سالف العصور مبلغاً لا يطاق : كان بعض نتائجه ما نراه بين الفرس والروم إذ بقيت الحرب بينهما سجالا مايقرب من أربعة قرون (٢٦٠—٦٢٨م) يتأجج لظاها أحياناً ما يناهز ربع قرن ، حتى يضطر أضعف الجانبين إلى الخضوع المؤقت ، فيعقد الصلح بينهما وقد انعقدت نية الغالب والمغلوب على تضميد جراحه ، والاستعداد بأقصى سرعة وبمبلغ الطاقة لحرب أخرى تنتهى بالقضاء على خصمه ، وتضمن له السيادة العالمية التى يزعم أنه جدير بها .

وتعود الحرب فتتقد نارها عشرين سنة ، ولا تهدأ خمس عشرة سنة حتى يستقر عزم كسرى الثانى على ضم دولة الروم كلها باعتبار أنها جزء من أملاكه استولى عليها عبد آبق من عبيده سمى نفسه الامبراطور هرقل .

وينتزع كسرى من يد الروم الشام ومصر والأناضول ، ويقف أحد جيوشه على ضفاف البسفور الآسيوية يرى القسطنطينية رأى العين ، ويفزع هرقل ويرسل كنوزه فى سفينة تتجه صوب ليبيا التى وثب منها إلى العرش ويأخذ أهبته للحاق بكنوزه . ولا يثنيه عن ذلك الفرار إلا بقية من الغيرة على المسيحية تزعمها البطريق ، فأجبر الإمبراطور على أن يقسم على البقاء فى العاصمة ومدافعة عبدة النار عنها .

وينهض هرقل فيحارب الفرس ست سنين (٦٢٢ — ٦٢٨) ويسترد صليب الصلبوت من فارس ويحتفل بإعلاء الصليب فى بيت المقدس سنة ٦٢٩ م وهى تقابل سنة ٧ ﻫ التى فتحت فيها خيبر .

وهذه الحروب المتلاحقة التى نشأت عن التعصب الجنسى تؤتى ثمرتها المرة فيتآمر ابن هرقل على عزله ، ويساهم شيرويه بن كسرى أبرويز فى عزل أبيه وقتله ثم يجلس على عرشه .

وتشيع الفتن والدسائس فى البلاطين الفارسى والرومى وتكثر الانقلابات الحزبية وتفوق الاضطرابات كل مايتصوره العقل .

أفما آن لهذا التعصب القومى أن ينزاح عن الناس بويلاته وكوارثه ؟ بلى ؛ قد جاء الإسلام فرماه بنص من نصوص دستوره « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . يريد جل ثناؤه أن يفهم عباده أن اختلاف الشعوب يراد منه التعارف والتعاون وتبادل المنافع بحيث يفيد كل شعب بما عند جيرانه من خيرات مادية ناشئة عن بيئتهم الخاصة ، كما يفيد من مواهبهم التى ساعدت بيئتهم على تكوينها . ويريد سبحانه أن يفهم عباده أنهم أخطئوا إذ جعلوا هذا التباين بين الشعوب سبباً فى العداوة والبغضاء .

وتجىء المذكرة التفسيرية لهذا النص على لسان رسول الإسلام

« الناس سواسية كأسنان المشط : لافضل لعربى على عجمى ؛ إنما الفضل بالتقوى »

ويأتى التطبيق مؤيداً لهـذه النصوص فنرى أناساً من غـير العرب ينزلون من محمد وأصحابه منزلة كريمة فبـلال الحبشى وعبدالرحمن بن عوف القرشى يقفان فى مستوى واحد وهما يناقشان عمر حين يحتدم الخلاف على أرض السواد : هل تقسم بين الفاتحين أم تبقى بيد أصحابها ؟ ويشتد بلال فى طلب تقسيمها فلا يسكته عمر ولا أحد من العرب ، ولايجد عمر حيلة فى إقناعه فيفزع إلى الله أن يلهم بلالا الصـواب ، يقول : « اللهم اكفنى بلالا » . وهذا سلمان الفارسى يؤخذ برأيه فى حفر الخندق حول المدينة ويظهر محمد وأصحاب محمد تقديرهم لفضله ؛ وهذا صهيب الرومى يوصى عمر بإسناد إمامة الصلاة إليه أثناء انعقـاد مجلس الشورى .

هذا عن التعصب القومى وما جاء للقضـاء عليه من التسامح فى الإسلام .

٢ — التسامح بين القبائل :

وأنتقل بعد ذلك إلى صنف آخر من التعصب هو التعصب القبلى الذى شاع ذكره باسم العصبية القبلية :

وتبياناً لذلك أكرر ما تعرفونه جميعاً من أن دول اليمن

بأسمائها المختلفة وحضارتها العظيمة قد انتهت باستيلاء الحبشة على اليمن سنة ٥٢٥ م وبقاء تلك البلاد خاضعة لحكم الأجنبي خمسين عاماً ثم دخولها بعد ذلك فى حكم أجنبي آخر هو حكم الفرس حتى إذا قهرهم هرقل سنة ٦٢٨م ٦ هـ . وهى سنة صلح الحديبية ضعف نفوذ فارس فى اليمن وعمان والأحساء وغيرها من تلك الأقاليم العربية .

وكانت حروب الفرس والروم قد بددت شمل المناذرة والغساسنة فأصبح العرب من تدمر شمالا إلى عدن جنوباً ومن الحيرة شرقاً إلى أيلة غرباً — أصبحوا جميعا قبائل متفرقة لا تجمعهم حكومة عربية ولا غير عربية ومن ثم اضطرت كل قبيلة أن تعول فى الدفاع عن نفسها على أبنائها وحدهم ، فإذا عضها القحط أغارت على جيرانها تسلب أموالهم وتسبى ذراريهم ، وشاعت عادة القتال بين هذه القبائل حتى كاد حب القتال يكون غريزة لا مناص من الاستجابة إليها .

فإذا ثارت هذه الغريزة فى إحدى القبائل اندفعت إلى مقاتلة قبيلة بعيدة عنها فى النسب . فإذا لم تجد قبيلة بعيدة النسب هاجمت أقرب القبائل إليها ولو كانت تربطها بها رحم وشيجة . وبانحطاط النزاع القبلى إلى هذا الدرك من التناحر انعدمت فكرة العدل بين القبائل . وأى عدل هذا الذى يستقيم بين جماعات أولى مميزاتها القتل والنهب والسبى ؟ .

ولحماية المجتمع من شرور هذه الفوضى تبرأ رسول الإسلام من التعصب القبلي وسماه عملا جاهلياً بمعنى أنه لا يليق إلا بقوم من الهمج الأغبياء . فقال « ليس مِنَّا من دعا بدعوى الجاهلية »[١] وهى الاستغاثة بالقبيلة : كانوا يقولون : يا آل فلان يا آل فلان ، فيجتمعون وينصرون المستغيث ولو كان ظالماً . وقاعدتهم فى ذلك : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما » .

فلما كانت غزوة « المريسيع » سنة ٦ هجرية ضرب رجل من المهاجرين أنصارياً ، فغضب الأنصارى غضباً شديداً وقال : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين . فخرج النبىّ (ص) فقال : « فما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها خبيثة »[٢] .

وامتنّ الله على المؤمنين بمحو هذا العداء من نفوسهم فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا »[٣] .

وقال جلّ ثناؤه : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألفَ بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ، ولكنّ الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »[٤] .

---

(١) البخارى فى باب ماينهى عن دعوى الجاهلية ص ٢٠ — ٢١ الجزء الخامس من الطبعة المنيرية .

(٢) البخارى — الخامس ص ٢١

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٣ (٤) سورة الأنفال آية ٦٣

٣ — التسامح بين الطبقات :

الأصل فى الاسترقاق الانتصار فى الحرب ، إذ كان المنتصر فى أقدم العصور يستولى على شخص المغلوب وزوجته وأولاده وكل ما يملك .

وكان المنتصر — أول الأمر — يتخاص من عدوه بقتله ، ثم جعل يستبقيه لخدمته . وكان آباؤنا الفراعنة يستخدمون الأرقاء فى الزراعة وما إليها ، كما كانوا يتخذونهم للخدمة وللمظاهر ، وكان للسيد — أول الأمر — الحق فى قتل عبده ، ثم ارتقت الحضارة المصرية حتى نصت القوانين على تحريم قتل الرقيق . وبلغ من ذلك أن كان السيد يقتل إذا قتل عبده .

وكان البراهمة فى الهند يدينون بأن طائفة معينة من الناس — يسمونهم السودرا — لا يصلحون إلا للرق . وكان القانون البرهمى يقضى بقتل « السودرا » لأقل هفوة . وكان الفرس يستكثرون من الرقيق . وكان قانونهم يبيح للسيد قتل عبده .

وبالغ اليونانيون فى احتقار الأرقاء . وأقرّهم على ذلك الفلاسفة . فنرى أرسطو — وهو أكبر عقلاء الأقدمين — يقول فى كتاب « السياسة » : —

« الطبيعة خلقت بعض الكائنات للامارة وبعضها للطاعة .

فمتى كان المرء أحط من أمثاله — كما تكون البهيمة إلى الإنسان — كان هو الرقيق بالطبع .

ومنفعة الحيوانات المستأنسة ومنفعة العبيد كأنها شيء واحد تقريبا .

ومهما يكن من شيء فبيّن أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين عبيد . وأن الرق فى حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو عادل . وعلى ذلك فسلطة السيد على العبد عادلة ونافعة[1] » .

وكان السيد اليونانى يعاقب عبده بالكى بالنار على جبهته ، ويكلفه إدارة الطواحين بدلا من البهائم . وإذا تصادف أن أعتق سيد عبده فإن المُعتَقَ يقضى بقية حياته بمثابة الحيوان محروماً من كل حق مدنى ، بل كان عليه أن يقوم بواجبات معينة نحو سيده السابق .

فإذا انتقلنا إلى الرومان وجدنا قانونهم ينص على أن الرق نظام من نظم قانون الشعوب بمقتضاه قد يخضع شخص لملكية آخر . وتيسيراً لفهم كثرة الرقيق عند الرومان أستميحكم عذراً فى عرض التشبيه الآتى :

أشبه الرق بحوض تصب فيه حنفيات كثيرة أقتصر على إحدى عشرة حنفية منها :

---

(١) كتاب السياسة لأرسطو ترجمة لطفى السيد باشا ص ٩٣ وما يليها .

١ — أولاد المرأة الرقيقة .

٢ — أسرى الحرب .

٣ — رعايا الدول الذين ليس بين دولهم وبين روما معاهدة وهؤلاء يحق لأى رومانى أن يسترقهم .

٤ — الرومانى الذى يعتدى على دولة أجنبية موالية لروما .

٥ — كل من حكم عليه بالإعدام أو الأشغال الشاقة أو منازلة الأسود يعتبر رقيقاً بقصد حرمان ورثته من التركة .

٦ — الحر الذى يبيع نفسه رقيقاً نظير ثمن معين .

٧ — العبد الحديث الولادة إذا تخلى عنه سيده ، فهذا يجوز لمن شاء أن يستولى عليه ويسترقه .

٨ — يباع رقيقاً خارج روما الهاربُ من الجندية .

٩ — » » » » الأولاد الذين يريد أبوهم بيعهم.

١٠ — » » » » المعسرُ الذى يريد دائنه بيعه .

١١ — » » » » السارقُ الذى يضبطه المسروق منه متلبساً بالجريمة .

وكان للسيد فى أكثر عصور التاريخ الرومانى أن يعدم عبده . وكان المعتَق — وهو نادر — يحرم من مناصب الدولة ومن الخدمة فى الجيش .

فإذا نظرنا إلى العرب قبل الإسلام وجدناهم يعدون العبد

شيئاً ضمن أملاك الأسرة يتصرف فيه رئيسها تصرفاً مطلقاً غير مقيد بقانون ولا بعرف .

وجاء الإسلام والحياة ما تزال مؤسسة على الرق فى ناحيتها الاقتصادية والاجتماعية بحيث أن أية محاولة للقضاء على الرق بجرة قلم كانت تؤدى حتما إلى انهيار المجتمع . ومن ثم لم يكن مشرع حكيم ليقدم على إلغاء الرق ، لأن عملا كهذا يقضى على مشروعاته الإصلاحية فى مهدها .

ولهذا السبب تناول الإسلام الرق بأسلوب لا يزعج العرب ولـكنه يؤدى إلى إلغاء الرق أو حصره فى أضيق نطاق : ذلك أنه عمد إلى الحنفيات التى تصب فى حوض الرق — وقد رأينا منها إحدى عشرة — فسد فوهاتها جميعاً اللهم إلا حنفيتين اثنتين هما الولادة والأسر .

ولم يكتف بذلك ، بل جعل يضيق فوهة كل من هاتين الحنفيتين . فأما الولادة فسدّ منها الجزء الخاص بأولاد الرقيقة من سيدها وهؤلاء هم كثرة الرقيق من الولادة . فمثل عنترة العبسى لو ولد فى الإسلام لـكان حراً من لحظة ولادته بدلا من أن يبقى عبداً حتى يضطر والده إلى عتقه عند ما احتاج إليه فى الدفاع عن قبيلته .

وأما حنفية الأسر فسد منها الجزء الخاص بأسرى الحرب التى تقع بين جماعتين من المسلمين وأعطى رئيس الدولة الإسلامية

حق سد الجزء الباقى وهو الخاص بأسرى الكفار الذين تحت يده ، فله أن يطلق سراحهم بفداء أو بغير فداء . ومن الجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم بدأ بالمنّ وهو تحرير الأسير دون مقابل ، وثنّى بتحريره نظير فداء ، وأبى أن يذكر الاسترقاق . قال سبحانه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّاً بعد وإما فداء[1] » .

وحث القرآن حثاً شديداً على تحرير الرقاب وهو العتق ، وبخاصة فى حال الحنث فى اليمين والافطار عمداً فى رمضان . بل إن المسلمين كثيراً ما كانوا يشترون الأرقاء بقصد واحد هو تحريرهم كما فعل أبو بكر إذ اشترى كثيرين وأعتقهم ،وأشهر هؤلاء بلال مؤذن رسول الله .

ومتى تحرر الرقيق أصبح مساوياً لمن ولدوا أحراراً إلى حد أنه أبيح له أن يتعاقد عن الدولة الإسلامية بأسرها بكلمة يقولها بغير إذن منهم . قال على بن أبى طالب : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » — يريد العبد . وكثيراً ما حدث ذلك فى الفتوح الإسلامية الأولى .

وتحدث عمر عن بلال فقال : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » . وقال النبى (ص) لزيد بن حارثة : « أنت أخونا

---

(١) سورة محمد ـ الآية ٤

ومولانا » وقد حرم الإسلام على السيد قتل عبده ، بل إن السيد إذا مثل بعبده كأن قطع جزءاً من أذنه أو أنفه صار العبد حراً بمجرد وقوع هذا العمل . ويقول أصحاب هذا الرأى : « إنه حر لله ولرسوله » ويقول الآخرون : إن العبد الذى مثل به يشكو للقاضى فيحرره متى ثبتت المثلة . ويستوى فى ذلك العبد المسلم والعبد الذمى (١) .

ولا أود إيراد أكثر من ذلك عن الأبواب التى فتحها الإسلام للتحرر بأن جعلها بالوعات تكاد تستنفد ماء حوض الرق لأنها أبواب تفوق الحصر .

٤ — التسامح بين الأديان :

غنى عن البيان ما قاساه المسيحيون فى العالم القديم من صنوف الاضطهاد ، فإن ماأنزله الوثنيون بهم من التعذيب المختلف الألوان قد سارت به الأمثال . ومن ذلك أن الأمبراطور الرومانى فليريان « Velerian » أصدر فى سنة ٢٥٨ م قانوناً بأن كل من يعتنق المسيحية من أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين يفصل من وظيفته وتصادر أملاكه . فإذا أصر بعد ذلك على البقاء على المسيحية حكم عليه بالإعدام .

---

(١) الذمى كل من كان رعية الدولة الإسلامية من غير المسلمين ويسمى أيضاً معاهداً ، وأهل الذمة هم الداخلون فى ذمة المسلمين ورعايتهم .

وإذا كان هذا شأن عظماء الدولة فما بالك بالعامة ؟ لقد كان من أنواع التنكيل بهم أن يرموا إلى الأسود الضارية بعد أن يشتد بها الجوع . هذا عن الوثنيين . وكان المنطق يقضى بأنه متى صارت المسيحية ديناً مسموحاً به أيام قسطنطين الأكبر بطل هذا الاضطهاد . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث فإنه لم يكد حكم قسطنطين ينتهى ، ويعتلى عرش الإمبراطورية خلفه قسطنطيوس الثانى Constantius II (٣٣٧ — ٣٦١) حتى شرع المسيحى يضطهد المسيحى .

وبحسبى أمثلة مما ذاقه آباؤنا وأمهاتنا الذين جرت العادة بتسميتهم قبطاً أخذاً من كلمة « أگوبتوس[١] Aigoptos » وهى باليونانية مصر . أجل أگوبتوس هى مصر وطننا المفدى ، حذف أوله وآخره واقتصر فيه على گوبت ومعناها مصرى . وهذا أساس هذا الاشتقاق .

وقد درجت منذ توليت التدريس من ٣٥ سنة مضت على تعليم تلاميذى أننا معشر المصريين جميعاً قبط : منا قبط مسلمون ومنا قبط مسيحيون . وزاد إصرارى على ذلك طوال المدة التى قضيتها فى التدريس بكلية دار العلوم . وقد أثلج صدرى أننى وجدت لهذا القول وقعاً حسناً عند طلاب هذه الكلية بنوع خاص .

---

(١) الكاف ذات الشرطتين فى الفارسية ينطق بها كالجيم فى لهجة أهل القاهرة ، ولهذا فضلتها هنا .

وبعد هذا الاستطراد أعود لما حل بآبائنا وأمهاتنا من اضطهاد ديني ، فأقول : « إن هذا الاضطهاد بدأ في الإسكندرية سنة ٢٠٢ وبدأ معه إهراق دم الشهداء ، وهدأ فترة ليعود أيام الإمبراطور فليب العربي (٢٤٤ — ٢٤٩) فكان الوثنيون من أهل الإسكندرية يطاردون المسيحيين في شوارع المدينة ويقتلون عدداً منهم ، وجاء اضطهاد جديد سنة ٢٥٠ كان من مظاهره النفي والسيف والنار لا ترحم شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ولا جندياً ، ومنهم من كان يذبح قرباناً لآلهة الوثنية (١) » .

وما تقبل سنة ٣٠٤ حتى يقاسي آباؤنا وأمهاتنا أعظم اضطهاد إذ كان دقلديانوس يرسلهم إلى المحاجر في الصحراء الشرقية وينفي بعضهم إلى فلسطين وقبرص وكيليكيا ويُرمى آخرون للوحوش الضارية في حلقة الألعاب (٢) ليكون ذلك متعة للحاضرين من الوثنيين .

فهل من عجب إذا سمى عهد هؤلاء الابطال الذين لم يبالوا بأن يراق على رءوسهم الزيت المغلى والقطران المغلى ، ولم يأبهوا

---

(١) ص ٨ ، ٩ من الجزء الثاني من كتاب Précis de L'histoire d'Egypte ومؤلف هذا القسم هو الأستاذ هنرى مونييه Henri Munier .

(٢) المصدر السابق .

بربطهم بالعجلات ولا بالقائهم للحيوانات المفترسة — هل من عجب أن يسمى عهد هؤلاء « عهد الشهداء » ؟ وهل من عجب إذا رأى المصريون من أهل ذلك الزمان أن بطولة هؤلاء الشهداء تستحق أن تكون مبدأ لتقويم مصرى خاص هو تقويم الشهداء ؟ وأن يبدءوا هذا التقويم من أول حكم دقلديانوس سنة ٢٨٤ م ؟

وهل من عجب أن يكون ذلك التقويم القبطى — أى المصرى — عماد زراعتنا إلى يومنا هذا ، لا يعرف فلاحنا تقويماً سواه لمواسم الزرع والحصاد .

وبعد هذا أكتفى بشذرات من كتاب الأستاذ الدكتور بَتْلَر — فتح العرب لمصر — معتمداً على الترجمة الرصينة التى دبجتها يراعة كاتبنا القدير الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك :

١ — لم يكن فى بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى من مصر ، فقد سعى جستنيان جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة فيدخلهم فى ذلك المذهب ، واشتد الكفاح أيام جَسْتِن الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) فلم يكن عجباً أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينة الإسكندرية نفسها [١] .

٢ — وماذا عسانا نذكر عن عسف الاضطهاد ، وعن

---

(١) ص ٣ نقلا عن حنا مسكوس Pratum spirituale

المذابح وما سال فيها من الدماء ، وتشجيع الحكام لذلك حتى جستنيان نفسه (١) .

٣ — ونجد إجماعاً من المؤرخين (وفيهم ساويرس الأشمونيني) على أنه ما ولى إمبراطور إلا سار على سنة القضاء على مذهب اليعاقبة فى مصر قضاء لا هوادة فيه ولا رحمة (٢) .

٤ — فتح الفرس بيت المقدس بمساعدة اليهود وقتلوا ٥٧٠٠٠ من المسيحيين وأسروا ٣٥٠٠٠(٣) بينهم آلاف كثيرة من الرهبان والقديسين والراهبات ، وأخذ الصليب المقدس ، وشىء لا حصر له من الآنية المقدسة من الذهب والفضة . واشترى اليهود كثيراً من الأسرى ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم(٤) . وكان ذلك سنة ٦١٥ أى قبل الهجرة بسبع سنين حين كان المسلمون فى مكة يلقون أشد العنت من كفار قريش .

٥ — كان الفرس سنة ٦١٧ يوقعون بما حول الإسكندرية من الريف ولا سيما الأديرة . وكانت الأديرة نحو ٦٠٠ قتل الفرس من فيها من الرجال لم يكد يفلت منهم أحد . وهدمت الكنائس والأبنية وأحرقت(٥) .

---

(١) ص ٢٨
(٢) ص ٤٢ ، ٤٣
(٣) ص ٥٤ نقلا عن Sebeos وغيره .
(٤) نقلا عن Cedrenus .
(٥) ص ٦٦ نقلا عن ساويرس الأشمونيني .

٦ — لما انتصر هرقل واحتفل بإعلاء الصليب فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩ أخذ منه اليهود أماناً مكتوباً[١] ، لكنه رغم ذلك أمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس وعن كل ما يقع على بعد ثلاثة أميال من أسوار تلك المدينة[٢] ووقعت مقتلة تشبه أن تكون عامة . ويقول المقريزى : إن اليهود قتلوا حتى لم يبق منهم أحد فى دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى ، ونجد تلك القصة فى كتاب سعيد بن البطريق[٣] .

٧ — ما هو إلا أن قدم قيرس الإسكندرية سنة ٦٣١ حتى هرب البطريق القبطى . وقد جمع بنيامين جمعاً من القسوس والرعية ، وألقى فيهم خطاباً يحضهم على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت[٤] .

وكان قيرس بطريقاً ملكانياً وحاكماً على مصر مطلق التصرف فى حربها وخراجها . وبعد قدومه بشهر أو بشهرين[٥] بدأ الاضطهاد الأعظم ، ولنضرب لذلك مثلاً بميناس وهو أخو البطريق بنيامين فقد أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ

---

(١) ص ١١٦ .
(٢) ص ١١٩ .
(٣) ص ١١٩ هـ (١) .
(٤) ص ١٥٦ [قيرس يسمى فى كتب التاريخ العربية : المقوقس — التونسى]
(٥) ص ١٦٣ .

يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض[١] ، ولكنه لم يتزعزع إيمانه ، فخلعت أسنانه ، ثم وضع فى كيس مملوء بالرمل فرموا به فى البحر بعيداً عن الساحل ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقر به مجلس خلقيدونية . فعلوا ذلك ثلاثاً ، وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر فمات غرقا .

٨ — كان آخر يوم للروم فى حصن بابليون هو يوم الفصح — عيد القيامة سنة ٦٤١ ، ولكن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ، ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحية فى مصر ، ولم تقع فى نفوسهم حرمة ليوم عيد الفصح الذى خرجوا فيه ، فبقيت فى صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شىء . وكانوا قد سجنوا منذ أول الحصار كثيراً من القبط الذين كانوا بالحصن . . فسحبوهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم ، أمرهم بذلك كبيرهم فلا عجب أن يسميهم الأسقف المصرى حنا النقيوسى : أعداء المسيح الذين فتنوا الناس عن دينهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج[٢] .

فإذا انتقلنا إلى جزيرة العرب فهناك يوسف ذو نواس باليمن ، وقد تهود وتهود معه كثير من الشعب فعمد إلى نصارى نجران

---

(١) ص ١٦٣ نقلا عن ساويرس .

(٢) ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ نقلا عن حنا النيقوسى ص ٥٦٧ .

فانقض عليهم سنة ٥٢٣[1] بجيش عظيم واستولى على المدينة عنوة ، وخير من بقى من أهلها حياً بين النهود والقتل . فلما اختاروا الموت حفر لهم خندقاً وضرب أعناق أناس منهم وحرق أناساً وألقى بالجميع فى الخندق ، وعن ذلك يتحدث القرآن الكريم فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود[2] ، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » والمؤمنون هنا هم المسيحيون ولا شك ، وقد أورد ذلك البيضاوى مع روايتين أخريين .

هذا طرف يسير مما كان عليه الاضطهاد الدينى ، أوهو التعصب الدينى الذى ضج منه الناس فى سائر الأقطار ورفعوا أبصارهم إلى الرحيم الرحمن أن يرفع عنهم هذا البلاء فنزل قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ »[3] .

وقال تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين »[4] .

وكتب رسول الله (ص) إلى عامله على اليمن : « من كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يفتن عنها » .

---

(١) أى قبل مولد الرسول بنحو ٤٨ سنة .
(٢) أى اليهود .
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦
(٤) سورة الممتحنة آية ٨

وقال (ص) : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » أى غالبه بالحجة : وقال عمر : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً : أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم »[١] .

وأتى عمر بن الخطاب بمال كثير من الجزية فقال : « إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس ! » ، قالوا : « لا ، والله ، ما أخذنا إلا عفواً صفواً[٢] » . قال : « بلاسوط ولانوط[٣] ؟ » قالوا : « نعم . » قال : « الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولافى سلطانى »[٤] .

وبلغ من تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى أنه آمن بجميع الرسل من آدم إلى عيسى عليهم السلام ، حتى أن كتب التوحيد تقول إنه يجب على المسلم — أو فى الأقل يحسن به — أن يؤمن بالرسل جميعاً ، وأن يعرف أسماء خمسة وعشرين منهم ، ومن بين هؤلاء موسى وعيسى حتما .

واختلف مسلم ويهودى فى التفضيل بين محمد وموسى ، فلما علم النبى بذلك قال : « لاتفضلونى على الأنبياء » .

---

(١) كتاب الأموال ص ٤٣

(٢) العفو : الزائد عن حاجة الذمى ، والصفو ما أعطاه برضا نفسه .

(٣) أى بلا ضرب ولا تعليق بحبل .

(٤) القصة واردة فى كتاب الأموال لأبى عبيد بن سلام ص ٤٣

وينقل البلاذرى عن أبى يوسف : « إذا كان فى البلاد سنة أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يبطلها ، فشكا قوم إلى الإمام لما ينالهم من مضرتها ، فليس له أن يغيرها » .

ويقول أبو عبيد بن سلام[1] : كل ما كان من سنة أهل الذمة وبيعهم وكنائسهم وغير ذلك مما وقع عليه الصلح ، فليس لأحد أن ينقضه » .

ومن ذلك أنه بينما عمر يسير فى الشام إذ لقيه المقلسون[2] من أهل اذرعات[3] بالسيوف والريحان ، فقال عمر : « مه ، ردوهم وامنعوهم » . فقال أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة « ياأمير المؤمنين ، هذه سنة العجم وإنك إن تمنعهم يروا أن فى نفسك نقضاً لعهدهم » فقال عمر : « دعوهم ، عمر وآل عمر فى طاعة أبى عبيدة » .

ويعلق أبو عبيد على ذلك بقوله : أنكرها (يقصد لعبة المقلسين) عمر وكرهها ، ثم أقرها لأنها كانت لهم قبل الصلح .

ومر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ كبير ضرير البصر . فضرب عضده من خلفه وقال : « من أى أهل الكتاب أنت ؟ » قال « يهودى » . قال : « فما ألجأك إلى

---

(١) كتاب الأموال ص ١٥٢

(٢) قوم يلعبون بالسيوف والريحان أمام العظماء بقصد الاحتفال بهم .

(٣) موضعها الآن البثنية بالمملكة العربية الهاشمية .

ما أرى ؟ » قال : « أسأل الجزية والحاجة والسن . . . »

فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المال ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : « انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ؛ والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . » ووضع الجزية عنه وعن ضربائه وأجرى عليه من بيت المال مايصلحه . واقتداء بعمر كان حفيده عمر بن عبدالعزيز ينفق على الفقير من أهل الذمة إذا كبرت سنه .

ولنلخص بعض مظاهر التسامح الإسلامى :

١ — فى الأقطاع :

قال الفقهاء : إن أخذ أرض من واحد وإقطاعها لآخر اغتصاب يحرم على الإمام فعله ، سواء كانت الأرض المأخوذة لمسلم أو لمعاهد . واستدلوا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

« من أخذ شبراً من أرض بغير حق طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » .

٢ — فى العشور وهى مانسميه الجمارك :

الذمى (١) أسوة المسلم فى عشور التجارة فى أنهما يلزم أن يؤخذ منهما قدر زكاة التجارة بالنص الشرعى . وهذا القول يستند إلى ما جرى عليه العمل فى صدر خلافة عمر .

---

(١) انظر هامش ص ١٨

٣ — العاشر : وهو عامل الجمرك لايفتش مسلماً ولا ذمياً ولكن يقبل قول كل منهما . قال زياد بن حدير : « أول من بعث عمر بن الخطاب على العشور أنا ، فأمرنى ألا أفتش أحداً » .

٤ — كان عمر بن عبد العزيز يعفى مقاتلة الموالى من أهل خراسان من الجزية ، ويسوى بينهم وبين العرب فى العطاء .

٥ — مرت مكاتبة أعجمية بتجارة عظيمة على العاشر فلما علم حالها قال : « ليس على مال مملوك زكاة » . وخلى سبيلها .

٦ — يجب على المسلمين فداء أسرى أهل الذمة سواء كانوا فى معونتهم أم لم يكونوا .

٧ — فى القتل الخطأ : دية الذمى دية المسلم .

ولننتقل إلى مظاهر التسامح فى بلدنا :

ينقل بتلر عن ساويرس الأشمونينى فى حديثه عن الأديرة الستمائة التى كانت حول الإسكندرية والتى خربها الفرس[1] :

« قد أعيدت هذه الأديرة بعد الفتح العربى ، وقد احتفل بها بنيامين نفسه بافتتاح كنيسة القديس مكاريوس احتفالا عظيما » وبعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة استفتى حاكم مصر الإمام الليث بن سعد وغيره من علماء العصر فى تعمير الكنائس . فقال الليث وبقية العلماء : « إن تعمير الكنائس من عمارة البلاد » . واحتجوا بأن الكنائس الكبرى بنيت أيام الصحابة والتابعين . ولا مرية فى أن

(١) [أنظر ص ٢٢ هنا — الفقرة ٥ — التونسى .]

الأديرة والكنائس التى عمرها بنيامين كانت فى ذهنهم إبان هذه الفتوى[1] .

وطيب الله ثرى شوقى فطالما نادى بهذا المبدأ الكريم — مبدأ التسامح — ولولا خشية الإطالة لتغنيت بكثير من شعره فى هذا الموضوع الجليل ، ولكنى أقتصر فأورد قوله :

أعهدتنا والقبط إلا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما ؟
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم[2] ... ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم ... عيشوا كما يقضى الجوار كراما

وأختم بقوله :

إنما نحن : مسلمين وقبطا ... أمة وحدت على الأجيال
وإلى الله من مشى بصليب ... فى يديه ، ومن مشى بهلال

محمد أحمد حسونة

---

(١) الليث بن سعد توفى سنة ١٧٥ هـ ، ٧٩١ م ويقول الإمام الشافعى إنه كان أفقه من مالك . ومسجد الإمام الليث إلى الجنوب قليلا من مسجد الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى . [يعرفه العامة فى مصر بالإمام الليثى — التونسى]

(٢) المعروف أن المسلمين ملزمون بإعلاء تعاليم المسيح بحكم الإسلام أولا سواء أكانوا مواطنين مع مسيحيين أم لم يكونوا . فنظرة الإسلام أوسع وأنبل مما يظن الشاعر [التونسى] .

الأسس النفسية والاجتماعية
للتسامح فى الإسلام

نسمع أصواتاً قوية تنبعث منذ قرن من أهل الغيرة على الإسلام فى شتى أقطاره وتنادى « لنعد إلى الإسلام » .

وهى صيحة كريمة جديرة بالاستماع ، وإنها لتنتشر وتشتد على مر السنين من الغيورين والمتظاهرين بالغيرة على الإسلام .

ولعل هناك صيحة أجدر منها بالاستماع هى « لنُعِدْ إلينا الإسلام » وبين الصيحتين فرق دقيق يفقهه من قدر عليه .

إن عودتنا إلى الإسلام أو عودة الإسلام إلينا لاسبيل إليها إلا بإزالة الطبقات المتحجرة التى تراكمت عليه خلال قرون الاضمحلال الماضية فطمرته فى ظلمات عميقة ، حتى صار الاهتداء إليه من أشق الأمور وأعوصها على العقول .

إن الأصل الجيولوجى لهذه المتحجرات مواد خبيثة فاسدة نضحت بها عقول وقلوب متعفنة خلال قرون طويلة كانت تحرص على خدمة أنفسها عن طريق ارضاء نزوات الطغاة من السادة ، وتسخير الرعايا لهم باسم الإسلام ، أو تحرص على عدم التصادم معهم فجاملتهم على حساب الإسلام ، أو دخلت الإسلام بعد أن فشلت

فى حربه وهى خارجة عنه لتكيده من داخله ، أو وضعت عالية فى مراكز الصدار لتنطق باسمه فى عصور الجهل والفساد وليس لها من الفقه به ولا الكرامة ما يؤهلها للنطق بلسانه .

ولقد تتابع تراكم هذه الطبقات عصراً فعصرا حتى أخفت معالم الإسلام الصحيح عن أعين الشعوب الإسلامية ، ولقد عجز الغيورون على الإسلام من المصلحين أن يزيلوا هذه الطبقات ، لأن جهودهم كانت ضئيلة متفرقة ، فلم تكن من القوة بحيث تستطيع تدميرها وطرحها بعيداً لإبراز البناء الصحيح للاسلام ، ولا سيما أنها كانت تلاقى الويلات من حرب القائمين على هذه المتحجرات وهم طبقات ثلاث أولاها السادة الذين يزول سلطانهم بزوالها ، وثانيتها سدنتها المرتزقة بسدانتها وهم متعاونون مع الطغاة على حرب كل من يحاول مساسها ، وثالثتها قطعان العامة التى « لا تريد » عن فهم مستقل بل « يراد » لها فتريد .

والفضل للاستعمار . هذا البلاء الذى أطبق على الشرق من الغرب بكل مالديه من جبروت وخداع ليتخذه سخريا .

لقد أفاق المسلمون من سكرتهم وغرورهم على أثر ضرباته القاسية : ضربات مدافعه ومذاهبه وفلسفاته ونظم معايشه وكل مقومات حضارته ، كانت ضربات مدمرة أصابت غروره فى مقتل .

قال نيتشه « كل مالا يقتلنى قوة لى » وكانت ضربات الغرب للشرق جبارة قاسية ولكنها لم تقتله ، فأيقظته وكانت له قوة .

لقد رأى المسلمون سيل الغرب العرم يكتسحهم أمامه فى عنف متلاحق ، فحاولوا أن يتحصنوا بماضيهم القديم ، ولكن الحصن الروحى الذى لاذوا به فراراً من مذاهب الغربيين وفلسفاتهم وأنماطهم المختلفة فى الاعتقاد لم يدفع عنهم ضررا ، ولم يقف فى وجه ضربة . إنه كان حصناً مزيفاً من التقاليد الفاسدة المتحجرة شاده مرضى القلوب والعقول من الجهلة والمنافقين من المتجرين بالعقائد إرضاء للمستبدين الفاسقين من الرعاة ، وقد شاده أولئك المرتزقة على نسق حصن الإسلام الحقيقى ، فله منه كثير من شكوله وألوانه وبهرجه ولكن ليس له معدنه وصلابته وجماله وكفايته ، وكان هذا التشابه الكاذب من جراء دقة التزييف إلى حد أنه خدع الشعوب فظنت الزيف هو الحقيقة التى ليس وراءها حقيقة .

وكلما نهض غيور ليرشد الناس إلى الحصن الصحيح المطمور تحت أطباق هذا الحصن المزيف حاولت هذه الطبقات الثلاث تحطيمه ، لأن هذه الطبقات الثلاث وحدها فى كل زمان ومكان هى التى تحرص على كل وضع قائم مهما بلى وفسد وجر على الرعية من بلاء .

إن الحصن المزيف لم يعد يغنى عن المتحصنين به شيئا أمام ضربات الحقائق المتوالية عليه والملحة فى هدمه من الداخل والخارج . وإن الشكوك فى قوته لتخالج كثيراً من المتحصنين به ، وكثير منهم قد فقدوا الثقة بكفايته ، فهم يتسللون منه فى تكتم

حذر ليلوذوا بغيره مما شادوا لأنفسهم أو وجدوا غيرهم قد شيده ، وكثير من القائمين فيه إنما يقيمون لجهلهم بمخارجه ، أو للجرى على حكم العادة التى تنفر من التغيير ، أو لعجزهم عن إشادة غيره أو لجهلهم بما شاد غيرهم ، ولو قدروا وعلموا لجلوا عنه غير آسفين ولا نادمين .

وما أقل من استطاعوا النفاذ إلى حصن الإسلام الصحيح بعد مجاهدات عنيفة مخيفة ، فلاذوا به آمنين مطمئنين ، وما أقل من يجاهرون بنفاذهم إليه ، ويحاولون أن يقودوا غيرهم إليه إلا فى رفق حذر خوفا من أن يتهموا من الأدعياء والأغبياء بالمروق من الحصن الزائف وما وراء ذلك من ألقاب وأحكام منها الخيانة العظمى واستباحة الدم .

إن الحركات الانتقاضية روحية وعقلية وذوقية ، فى شتى الأقطار الإسلامية ليست إلا انهيارات فى هذا الحصن الزائف ، وإنها لتبشر بخير كثير ولو كره المنافقون ، ومن سمات الخير فيها بطؤها وتعدد جوانبها مما يدل على أنها طبيعية وليست مفتعلة لمصلحة فرد أو طائفة خاصة ، بل إن المنافقين ليجارون المخلصين فى حركاتهم ويعملون على عرقلتها من الداخل حينا والخارج حينا ، ولكن كل تلك الحركات المخلصة والمنافقة لابد أن تطيح بذلك الحصن المزيف « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

وعلى ذوى الغيرة من المسلمين أن يعملوا على قلقلة هذا الركام ونسفه وتذريته حتى ينكشف على سطح الأرض الحصن الحقيق الرابض تحت هذا الركام ، فإذا برز لوجه الشمس استطاع الناس أن يدخلوا فيه أفواجا .

وعلى هؤلاء الغيورين أن يكونوا « عاقلين » فى النقض حتى لاتخر عليهم كتل الحصن الزائف فتسحقهم أو تطمرهم تحت طبقاتها أو تنهار جملة فتصدع أركان الحصن الأصيل تحته ، ولا تحزنهم الرضوض والجروح والكسور التى تصيبهم من جراء مايتساقط عليهم من حجارة وحصى ، ولا ما يثور فى وجوههم من غبار خلال النقض ، فهذه من طبائع الوجود . ولابد للجهاد من ضريبة ، ولا يحزنهم مايقذفهم به العائذون به فإن الزمن حليفهم ضده وضد من فيه ، وخير مايفعلون أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالحسنى ليستخرجوهم منه قبل أن ينقض عليهم فيهلكوا تحته ضحايا الغباء لاشهداء الحق . وإلا فدماؤهم على رءوسهم جزاء مايعتدون « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »

إن المحاولات التى تبذل لترميم الحصن الزائف هنا وهناك محاولات خائبة . إنها قد تطيل أجله ولكن مصيرها كمصيره الضياع . إن كل شىء يقف فى طريق الزمن لابد أن مصيره البوار . فلينجين امرؤ نفسه قبل أن يحل عليه العذاب .

إن البنيان المزيف لم يعد صالحا للسكن فيه ولا التحصن به ،

فمن شاء أن يحفظه رسوماً وطقوساً وقوانين جامدة فلينقله من عالم العمل الحى إلى عالم المتحف الميت .

يجب أن نفقه روح الإسلام واتجاهه من وراء نصوصه ، وإلا أسأنا إلى أنفسنا وأسأنا إلى الإسلام .

لو أننا جمعنا كل المسلمين من شتى أقطار العالم وحشدناهم فى صحارى شبه الجزيرة العربية لهلكوا ، وخير لهم أن يظلوا حيث يعيشون فى أرض الله الواسعة . ولو أننا نقلناهم من أزمنتهم إلى مطلع فجر الإسلام أو غيره من بعده وطبقت عليهم تطبيقات أهله لهلكوا ، وخير لهم أن نحمل إليهم وهم فى أزمنتهم روح الإسلام واتجاهه كما تدل عليه نصوص القرآن والسنة الصحيحة ، ونأخذهم به وهم حين هم فى أزمنتهم ، فإنهم سيجدون أن الإسلام أصلح لهم من كل نظام سواه ، ولن يضيق مذهبه بهم أينما كانوا ، وإن ضاق بهم تشدد المترقبين الجهلاء من الناطقين باسمه ، أو كما قال بشار :

« لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق »

إن الدين ينبع من القلب بالتربية الصالحة ومزاولة الفضائل ولا يلصق به إلصاقاً ، فلنفجر بواعث الإيمان فى قلوبنا تفض ينابيعه حتى تنتظم فيوضه كل حياتنا ، وتنبعث معها كل قوانا النفسية والعقلية والذوقية ، وينضح بالدين كل مانقوم به من حركات ، بل كل ما يجيش فى نفوسنا من أفكار ونيات .

إن الإيمان أصل القوة ، والقوة توأم التسامح ، ونظرة إلى التاريخ الماضى والحاضر بين الأفراد والجماعات تكفينا اقتناعا بأن التسامح أبدا قرين القوة ، فعصور القوة هى عصور التسامح ، والأقوياء هم المتسامحون ، والإنسان الفرد تتعاوره أطوار التسامح والتشدد بقدر ما لديه من قوة ، أى بقدر ماعنده من إيمان .

إن الدين يعترف بما فى الإنسانية من ضعف ، ولكنه مع ذلك يثق بها أشد الثقة ، ويرفعها إلى أعلى مقام .

الإسلام نظام واحد من حيث هو عقلى مجرد ، ولكنه — من حيث هو عقيدة وشريعة أو دين يتدين به ، وينهج عليه — نظم تختلف وتتعدد باختلاف المتدينين به ، فليس دين كل إنسان إلا صورة شخصيته أو صورة نفسه وحياته الحقيقية بكل ما تأثرت وأثرت فى الحاضر والماضى من خير وشر ، وبكل ما لها من قوى خلقية وعقلية وذوقية واقتصادية فى موقعها مما حولها ومن حولها ، وكل إنسان يختلف فى هذا عن كل إنسان سواه ، ولهذا كان دين كل إنسان يختلف عن دين كل إنسان سواه ، فإسلام النبى محمد غير إسلام عمر وعلى وخالد ومعاوية وعمرو وحسان وعمار وأبى هريرة وعائشة وهند ، وكلهم يدينون بدين واحد ويعيشون فى عصر واحد وبيئة واحدة ، فكيف إذا تناءت العصور أو اختلفت البيئات . إن كل مسلم يختلف عن سائر المسلمين فى إسلامه ، ومن ثم يجب ألا نجرد الفاضل من فضله الشخصى وننسبه إلى دينه ،

كما يحرم أن نجرد الناقص من نقصه وننسبه إلى دينه ، فللدين فضله ولكنه غنى عن فضل الفضلاء من أتباعه كما هو برىء من سوء السيئين منهم ، والدين لاشك يزيد بفضله الفاضل فضلا ، لأن اتجاههما واحد ، ولكنه يندر أن يزيل سوء السيىء ، بل يندر أن ينجو من تسخيره إياه تسويغاً لسوئه لأنهما يسيران فى اتجاهين متضادين.

ولنلاحظ أن الإسلام — وكذلك كل دين ونظام — إنما هو وحدة متكاملة الأجزاء ، أو هو بنية حية ، وأن قوته وجماله فى وحدته وتكامل أجزائه ، وأن مما ينقص قوته وجماله ترقيعه بما لا يتفق وروحه وتصميمه ، فإن جسما مركبا من أجمل رأس لرجل وأجمل بدن لامرأة هو أقبح من سائر الرجال والنساء جميعا ، فعلينا أن نقبل الإسلام كله فيما جاء به ، وأن نتجنب ترقيعه بلا ضرورة مهما تكن الرقعة من القوة والجمال ، وأن نكمله مما جاء فيه ، وأن نستأنس بروحه واتجاهه وتصميمه الهندسى العام فيما لم يرد له حكم صريح فيه ، ولنا فى القياس بأوسع معانيه وفى غيره مدد لاينفد ، ولنحذر كل الحذر من أن ننقل الناس من أزمنتهم وبيئاتهم إلى غيرها فهذا شر جناية عليهم وعلى النظم التى يحاول أخذهم بها ، وحملهم عليها .

إن الذين يحاولون أن يقفوا بنا حيث وقعت تطبيقات قواعد الإسلام فى أى عصر من عصور النهوض فضلا عن عصور

الاضمحلال كمن يحاولون أن يكفوا الكواكب عن الحركة أو يرجعوها إلى حيث كانت فى تلك العصور .

كلتا المحاولتين مضحكة ، وكلتاهما مؤسفة ، وكلتاهما غير مستطاعة .

وكلتاهما معجزة من معجزات الغباء والجهل الذى ليس وراءه جهل بنظام الأفلاك ونظام الإنسانية ، والغرور الذى ليس وراءه غرور بقدرة المحاولين على حبس الإنسانية عن التطور ، وكف الكواكب عن الحركة . وهذا ما يدل عليه خطور هذا الوهم بالفكر فضلا عن العمل على تنفيذه ، فعلى من يهجس فى خاطره الممسوخ وهم القدرة على تعويق الإنسانية عن التغير أن يورد على خاطره وهم القدرة على إيقاف الكواكب أو إرجاعها إلى الوراء ، فإذا كان يصدق أن له قدرة على صراع الكواكب فليثق بأنه إما إله وإما مجنون .

إن روح الإسلام واتجاهه باق لا يتغير ، ولا حاجة به ولا بنا إلى أن يتغير ، ما دامت السموات والأرض ، وما دامت الناس كما نرى ، لأنه دين الفطرة ، والفطرة لا تتغير وإلا لم يكن الإنسان حينئذ إنسانا . هذا الروح فى إتجاهه الصحيح هو الذى يجب أن ننظر إليه ونصونه ، ولا نفزع من تغير تطبيق قواعده ونتائج هذا التطبيق باختلاف الأزمنة والبيئات ، فالانسان يكون جنينا وطفلا وصبيا وشاباً وكهلا وهو هو دون أن يصير إنساناً آخر ، وكل هذه

الأطوار كامنة فى معدنه وروحه الذى لا يتغير بتغير البيئة والمظاهر ونحوها ، فلنعمل على تجلية هذا الروح ، ولْنَدِنْ له وحده بالفضل ، ولنأخذ به أنفسنا حسب زمننا مع المحافظة عليه سالما .

ولا علينا أن نسترشد كما استرشد عباقرة الفقهاء ممن فقه روح الاسلام واتجاهه أو ما يسمى حكمه بأوسع معناها من وراء النصوص دون الوقوف عندها وحدها ، مع فقه البيئة والأزمة المتغيرة وتقديرها قدرها ، ومراعاة حاجة الناس عامة فى البيئات والأزمنة التى يعيشون فيها ، ولنا فيما يسميه بعض الفقهاء المصالح المرسلة مجال يسع الناس فى كل زمان ومكان . وهذا هو الاسلام الصحيح وما عدا ذلك فهو مزيف دخيل عليه ولو حسنت نية المزيفين . وإن وزن كل من هذه الأشياء بالحق والتوفيق بينها من غير إهدار شىء منها هو الفقه الصحيح وما عداه فأهواء باطلة ليس لها أمام الناس ولا أمام الإسلام من شفيع .

لنفقه نصوص القرآن والسنة مجتمعة بل روحها واتجاهها ،

ومن أجل هذا وجب أن تكون صيحتنا « أعيدو إلينا الإسلام » لا « أعيدونا إلى الإسلام » وفى السنة خاصة — بعد تنقيتها تنقية دقيقة بحيث تطابق نصوص القرآن ، ولا تصادم العقل ولا ماثبت بالبرهان — يجب أن نفقه روح القول وباعث العمل وداعى الإقرار ، فقد يكون القول لمناسبة خاصة ، والعمل علاجا لحالة خاصة والإقرار وقوفا مؤقتا لداع خاص لم تكن معه

حاجة ملحة إلى الاعتراض على ما أقر ، والإقرار هو أولى جوانب السنة بالدراسة لأن المشرع لايعترض عبثاً ، أو لمحض المشاكسة ، أوجب التغيير ، فحسب أمر كى يقر ألا تنجم عنه مضرة فى بيئته ، أو تكون حربه شرا من مسالمته مع مافى بقائه من مضرة ، ويترك المشرع للظروف ما أقره مضطراً كى يتفاقم ضرره فيتخلى عنه أنصاره طائعين ، وقد يصير النافع ضاراً والضار نافعاً ، أوتصير عاقبة حرب عادة أو إنسان مأمونة بعد أن كانت غير مأمونة ، أو يصيرغير المحتمل محتملا والمحتمل غير محتمل فلابد من تغير الأحكام تبعا لكل ذلك ، ثم هناك أمر لامناص من تقريره وهو الطاقة البشرية ، فليس الدين مسألة حسابية عقلية ، ولا الناس أرقاما ولا المشرعون آلهة يخلقون مايشاءون ، بل هم مقيدون بهذه الطاقة البشرية بكل مافيها من قدرة وضعف وخير وشر .

علينا أن نفقه البشرية وبيئاتها قبل أن نفقه القوانين التى نريد أخذها بها وإلا مسخنا البشرية وحطمنا القوانين .

لكن « محمديين » « عمريين » فى إسلامنا ، ولنا فى حياة محمد نبى الإسلام أسوة حسنة ، ولا يطلب منا أن نكون مسلمين أكثر من إمام المسلمين عليه السلام ، وحسبنا من دروسه موقفه من زان جاءه معترفا بجريمته وسارق جىء إليه به فاعترف بسرقته ، وحسبنا من من الدروس الدرس العمرى فى موقفه إزاء « المؤلفة قلوبهم » وفيهم نص قرآنى ، وإزاء عبيد حاطب بن أبى بلتعة وقد سرقوا

واعترفوا بالسرقة وفى السرقة نص قرآنى . إنا لو فقهنا درساً واحداً من هذه الدروس لانحلت أمامنا بالأحكام الإسلامية آلاف المشكلات ، ولم تكن هذه الأحكام ذاتها أمامنا مشكلات تصيب العقول بالدوار من غير أن نجد لها حلا . إن هذه الدروس على يسرها من أحكم الدروس التشريعية وأقواها للتوفيق بين تقلبات الأحوال وأحكام الإسلام ولو كانت من نصوص القرآن .

لقد قرر الإســـلام أن الفلاح فى الحياة الدنيا والأخرى له ركنان : الإيمان والعمل الصالح .

وفى القرآن عشرات الآيات تؤكد ذلك توكيداً صريحاً لا يشوبه غموض ولا تردد ، فإذا اجتمع لحياة هذان الركنان فهى صحيحة صالحة ، وإلا فهى باطلة زائفة ، والإنسان الصحيح هو المؤمن ذو العمل الصالح ، ولا عبرة بجنسه ولا قوميته ولا حسبه ولا نسبه ، ولا نحو ذلك . ففى القرآن مثلا « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون [١] » وفيه « الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم [٢] » وفيه « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا [٣] » .

---

(١) سورة النحل — ٩٧ (٢) سورة يونس — ٦٤
(٣) سورة الكهف — ١٠٨

بل إن الإسلام يفتح باب الفلاح والرضوان فى الدنيا والآخرة أمام كل إنسان مهما يكن دينه مادام مؤمنا صالح العمل ، وفصل المقال فى هذا الإشكال الآية الآتية من سورة البقرة «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1]» .

ولا أعرف ديناً ولا نظاماً ولا مذهباً سبق الإسلام أو لحقه فى تقرير هذه البشرى للانسانية ، والتعالى بالإنسان المؤمن الصالح العمل إلى رضوان الله فى الدنيا والآخرة ، وتلك ذروة فى التسامح بين المختلفين فى الدين لم يسبق الإسلام إليها سابق ، ولا يمكن أن يلحقه فيها لاحق .

فليفقه المسلمون ذلك ويعملوا بهديه إزاء مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى ، وليأخذوا أنفسهم بهداه فى موقفهم حيالهم فلا يعمدوا معهم إلى الشغب والتطاول . وليعرفوا الفضل لذويه مهما تختلف صوره ، فالعبرة بمعادن الحقائق لا بأشكالها ، ولقد يؤكد بعض ذلك ترك الإسلام الناس ومايعتقدون سواء فى ذلك أهل الكتاب ومن لهم شبهة كتاب ، وتوليه الأنبياء جميعاً ودعوتهم جميعاً مسلمين . و «إن الدين عند الله الإسلام[2]» والإسلام أن يسلم المرء وجهه لله وهو محسن .

---

(١) البقرة — ٦٢ ، وانظر سورة المائدة — ٦٩

(٢) آل عمران — ١٩

ولنحاول أن نفصل فصلا حاسماً بين قواعد الإسلام وتطبيقاتها حتى فى القرآن خلال عصر النبى وما تلاه من عصور ، فالعصور تتغير ومن ثم تتغير التطبيقات أو الأحكام ، وندر أن تتغير القواعد ، بل لا حاجة إلى تغيير قاعدة إذا فطنا إلى روح القواعد مجتمعة كوحدة أو بنية حية ، وفقهنا اتجاهها . فإن أكثر ما نظنه من أصول الإسلام أو قواعده هو نتائج تطبيقاته التى جرت فى عصور غير عصرنا لدواع خاصة قد تغيرت فلابد من تغير التطبيق واللجوء إلى القواعد ذاتها بل روحها ، وذلك أجدى لنا وللاسلام ، بل هو الحق وغيره الباطل .

إن كل نظام مهما يكن مصدره لا يزال بخير ما تطور حسب المصلحة العامة ، والناس بخير ماتطور نظامهم معهم ، وإلا أهلكهم وأهلكوه ، إن لم يستبدلوا به نظاماً غيره مناسباً لهم .

وإن شريعة الأمة ونظامها وفنونها وقوانينها وصناعاتها لا بد أن تكون نسيج روحها العامة فى بيئتها ، وتعبيرا عنها ، وهى بذلك تتسق معها ، وإن لم تكن كذلك كانت غريبة عنها ، وهذا من نواميس الاجتماع .

ولنفطن إلى حقيقة يسيرة هى أن الديانات والنظم وما إليها جاءت لمنفعة الناس ، ولم يكونوا هم من أجلها ، وعلى من يريد الإفتاء أن يدرس أحوال البشرية التى يريد الفتيا لها ، وما تحتاجه ومالا تحتاجه ، وما تطيقه وما تعيا به ، والخير العام لها حين الفتيا ،

وذلك قبل أن يدرس النصوص والقوانين ، فمن جهل ذلك هيهات أن يفلح فى فتاواه ولو أحاط خبرا بكل نصوص الكتب وكل القوانين.

إن المفتى كالطبيب عمله أولا أن يعرف حال المريض العامة ونوع مرضه وموضعه وعلاقته ببنيته عامة وما يناسبه من الأدوية وما إلى ذلك قبل أن يشرع فى العلاج ، وإلا أهلك المريض مهما يكن علمه بخصائص الأدوية ومواقيتها وكمياتها ونحو ذلك .

إن حال المريض هى التى تحدد العلاج وكل ما يتصل به . وإن حال الناس هى التى تحدد النظام الملائم لهم دون سواه . إن مصلحة الناس العامة هى الغاية من كل النظم أيا كان مصدرها ، فلننظر أين مصلحة الناس كما نستنبطها من أحوالهم لا من فرض نفترضه من خارجهم ولو أعجبنا ظاهره .

لا سبيل إلى اللقاء بيننا وبين الإسلام حتى ينتقل إلينا ويتأقلم أو يتوقت أو يتأم بحسب أحوالنا ، فلنعمل على ذلك أولا ، أما البكاء عليه وعلينا فجهد ضائع ولو كنا مخلصين فيه .

إن علينا أن ننقله من عالم المتحف إلى عالم العمل ، بدلا من أن يظل هناك منفصلا عن حياتنا أو أن ننقل أنفسنا إلى عالم المتحف لنلتقى به هناك .

إن الدين عمل ، فلنأخذ أنفسنا به ، وليس مما يشرفنا أن نعدد مناقب ديننا وفضله على غيره من الأديان والنظم ، وما كان عليه

أسلافنا من فضل وعظمة وسلطان حين دانوا له ، فكل أولئك وحده — وإن كان حقا — لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكسبنا خيراً، ولن يدفع عنا شراً . علينا أن نغير أخلاقنا وأعمالنا ونصلح نفوسنا من المرض لنكون أهلا للاسلام وإلا فلن تنصلح أحوالنا . علينا أن نهيأ بأخلاقنا وأعمالنا لقبول الدين أولا، وإلا أسأنا إليه ، والقرآن يقرر أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

إن ديننا لم يجعل القيام عليه حكرا لفرد ولا لطائفة ، والنبي نفسه لم يدع لنفسه أكثر من أنه بشر مثلنا أوحى إليه ، فحقه فى الدين ما عدا الوحى ليس أكثر من حقنا ، وواجبنا نحوه لا يقل عن واجبه ، وكل مسلم إمام نفسه مادام قادراً على ذلك . ويقرر الإسلام أنه لا واسطة بين المرء وربه إلا نيته وعمله ، فمن يطلبه فهو قريب إليه ومن تقرب إليه خطوة تقرب إليه خطوات ، وكل إنسان ملزم بأن ينظر لنفسه ويعمل لها، ولا يعفيه من هذا الواجب طاعة سيد ولا كبير . فمن يحتجون أمامه بأنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل فجزاؤهم أن يؤتوا أجرهم ضعفين من العذاب ويلعنوا لعنا كبيرا ، ومن يحتجون باتباع الآباء فحجتهم داحضة ، ولن يغنى عنهم آباؤهم من الله شيئاً . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى[1] » .

---

(١) الإسراء — ١٥

يقرر النبي أن « الدين المعاملة » ويقول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » فالنية الخالصة أو الإيمان والعمل الصالح وحدهما ، هما العملة الصحيحة الرائجة عند الله وعند الناس أيضا .

ويقرر الإسلام لقاء ذلك أن لا سلطان لأحد على نفس الإنسان وعمله ، فالمرء وما يرى والمرء وما يعمل « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[1] » ومحمد لا يدعي لنفسه سلطانا على أحد ، والقرآن وسيرة النبي يؤكدان أنه ليس إلا هاديا « لست عليهم بمسيطر[2] » و« ما على الرسول إلا البلاغ[3] » و «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء[4] » .

ولا أعلم أنه سبق الإسلام دين ولا نظام يقرر كما قرر هو الكرامة للانسان لمجرد أنه إنسان دون نظر إلى جنسه ولا دينه ولا قومه ولا حسبه ولا نسبه ، ولا لحق الإسلام حتى اليوم نظام قرر هذه الحقيقة وأعلاها مثله « ولقد كرمنا بني آدم[5] » فكرامته حق له لا يجوز أن يبخس منه شيئاً حتى إذا عمل ما يستوجب إزهاق روحه فلا يجوز احتقاره ولا القسوة عليه ولا التمثيل به ولا ظلمه فمن حقه أن تصان كرامته كاملة لأنه إنسان ليس غير ، وإن زنى وإن

---

(١) البقرة — ٢٥٦
(٢) الغاشية — ٢٢
(٣) المائدة — ٩٩ ، وانظر ٩٢
(٤) البقرة — ٢٧٢
(٥) الإسراء ٧٠

سرق وإن قتل . وقد نهى النبى عن المثلة ولو بالكلب العقور ونهى عن القسوة بمختلف ضروبها حتى على الحيوانات فكيف بالإنسان الذى كرمه الله ، وجعله فى الأرض خليفة لثقته به مع اعترافه بضعفه « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون[١] » فالضعف الإنسانى أمر واقع ولا سبيل إلى تجاهله ولا مقابلته بالعنف ، وحق الإنسان فى صيانة كرامته مهما أخطأ حق مقرر ، وكذلك حقه فى العطف عليه مع الثقة به ، والمرجع فى كل ذلك القانون الإنسانى العام : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » أو كما قال النبى « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والآية « خذ العفو وأمر بالعرف[٢] » ، والآية « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[٣] » ، والآية « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب[٤] » ، و « ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد[٥] » فمن ادعى لنفسه من السلطان على ضمائر الناس أكثر من النبى فليس له من الإسلام حجة ناهضة ، بل إن الإسلام يتبرأ منه وينكره لأنه يدعى لنفسه الربوبية على البشر وقد انفرد بها

(١) البقرة — ٣٠ (٢) الأعراف — ١٩٩
(٣) النحل — ١٢٥ (٤) الرعد — ٤٠
(٥) ق — ٤٥

الله ، وأنكر على فرعون أن يزعم لنفسه ذلك حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » ولا معنى للربوبية فى هذا ومثله إلا السيطرة على نفوس البشر لا الخلق ولا الرزق ولا الحياة ولا الموت ، فما فرعون ولا غيره بجاهلين أنهم لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ولا نشورا . فنفس الإنسان لخالقها وحده ولا سلطان عليها لأحد غيره ، والخطوة الأولى فى الإسلام هى « لا إله إلا الله » وليس معنى الإسلام إلا أن يسيطر الإنسان على نفسه ويسلمها إلى الله الذى بيده وحده الملك . لأن من لا يملك شيئا لا يقدر أن يسلمه .

فحرية الضمير والاعتقاد والفكر والعمل من صميم بنية الإسلام ، والمساواة بين أصغر الناس وأكبرهم أمام الله كاملة وإنما يتفاضل الناس بالتقوى وهى المحور الجديد الذى جاء به الإسلام لتدور حوله حياة البشرية فهذه « التقوى » هى القيمة الوحيدة للبشرية فى الإسلام وما عداها فأصنام لا يعترف بها ، بل ينكرها ويحاربها بلا رحمة ولا هوادة .

لسنا مسلمين حتى نعرف لأنفسنا ولغيرنا الكرامة ، ونتمسك بها فى العسر واليسر ، ولن نكون كراما ونحن نعتدى على كرامة غيرنا أو نرضى بأن يعتدى عليها أمامنا . وصدق المتنبى إذ قال :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام .

ومن يأخذ نفسه بالنظافة فى جسمه وملبسه ومنزله عن نزعه صادقة يؤذيه ألا يرى غيره نظيفا ، فلا سبيل للانسان إلى الغبطة بفلاحه

حتى يكون الفلاح عاما . ومن لم تؤلمه مناظر الشقاء فهو من الأشقياء ولو زعم أنه من السعداء . وما أرّق المصلحين ودفعهم إلى تعريض أنفسهم لشتى ألوان العذاب والمغامرة فى حرب الشرور وهم يعلمون أنهم سيكونون ضحاياها إلا نفورهم من رؤية الفساد ، واستبداده بصرعاه من الفاسدين ، وما حاربوا الفساد رغبة فى نفع شخصى ولا زهداً فى الراحة والسلامة ، إنهم يثورون ضيقاً بالشرور التى تحل بغيرهم وحبا فى استنقاذ ضحاياها ، ولولا ذلك القلق المقيم المقعد لكان لهم من صلاح أنفسهم ما يدعوهم إلى التماس العافية فى البعد عن مشاغبة الأشرار وهم لا يجهلون جرائر إشهار الحرب على الشر ولا البلايا التى تصيبهم حتى من الأشرار الذين يعمل هؤلاء المصلحون على استخلاصهم من الشرور ، وما أعظم الكلمة الملهمة التى تنسب إلى أكثم بن صيفى الحكيم العربى الجاهلى « لو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا فى مقاتل الكرام » وما أجدرها بنبى فإنها كلمة نبوية .

على كل منا أن يأخذ نفسه بفضائل الإسلام قبل أن يدعو غيره إليها ، ولا نجعل الاسلام سلعة نصدرها لغيرنا لا لاستهلاكنا ، وعلينا أن نجفف عيوننا من الدموع الكاذبة على الاسلام ، فإن دموعنا على عليل لن تشفيه من علله بل يشفيه منها علاجه ، ولا نكون كذلك كما قال الفرزدق للحسين حين لقيه فى خروجه إلى العراق فسأله كيف ترك أهله الذين دعوه إليهم لينصبوه خليفة عليهم

ويجاهدوا من حوله المتجرين بالإسلام فأجابه الفرزدق « تركتهم وقلوبهم معك وسيوفهم عليك » فلا يجوز أن تكون قلوبنا مع الاسلام وسيوفنا عليه ، فتلك أظهر آيات النفاق والكذب ، فلنكن معه بسيوفنا أيضاً وإلا كُنّا منافقين كاذبين .

وفى مثل ذلك جاءت الآية : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين[1] » .

وقد استنكر القرآن — بحق — أن يكذب الفعل القول ، كما تدل عليه الآية : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » كما استنكر الأمر بالخير وعدم العمل به وعده جهلا : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

إن الخواء الروحى ليطبق على العالم فى عنف ، والأمم تضطرب فى كل مكان ، والنظم القديمة كلها تتصدع وتتداعى عن قصد وغير قصد ، وأصحابها يخربونها بأيديهم وبأيدى غيرهم ، ويظهر أن البشرية تتقارب وتتجه نحو الوحدة العامة ، وهاهى ذى تتوجع وتضطرب فى انتظار دعوة جديدة تتمخض عنها بعد هذه الحمى

(١) سورة التوبة — ٤٦ ، ٤٧

القاسية التى تعانى عذاباتها ، فما لم تتقدم رسالة روحية من الرسالات القديمة لسد هذا الخواء محتفظة بجوهرها الصحيح الملائم للفطرة الإنسانية منسلخة من قشورها وأعراضها البالية — ولن تكون هذه الرسالة إلا الإسلام — فلابد من ميلاد رسالة جديدة تلائم الوحدة العالمية المنتظرة ، وإنها لعلى الأبواب ، فما هذه الاضطرابات من حروب وإضرابات وفتن واضطهادات ونحوها إلا أعراض حمل الإنسانية لهذه الرسالة ، وإن تتابعها المحموم لأظهر أعراض المخاض وما أسرع مايضر بها الطلق فيخرج الوليد الموعود .

لقد خرج المارد «ديموس[1]» من القمقم الذى طال حبسه فيه ولا سبيل إلى إعادته إلى القمقم مرة أخرى ، وقد خاب أحكم الساسة ورجال الدين والفلاسفة والعلماء والأغنياء فى تسكين ثورته وترويض جماحه ، بل إن الحكام بجبروتهم والساسة بخداعهم ورجال الدين بنفاقهم وجمودهم والفلاسفة بترفعهم عنه وعدم استساغته آراءهم والعلماء بما وضعوا فى يده من أسلحة وما مزقوا عن عينه من حجب وحطموا عن جسمه من قيود ، والأغنياء باستئثارهم دونه بالرزق ونحوهم من القادة بغفلتهم وحماقاتهم ولؤمهم — كل أولئك يزيدون من ثورته وضراوته وجبروته ولا سبيل إلى تسكين ثورته وترويض جماحه إلا بالدين . وقد بدأت الحرب بينه وبين السحرة من قديم ولقد بدأت المعركة الأخيرة

(١) ديموس كلمة يونانية معناها « الشعب »

فى هذه الحرب وقد أفلست الديمقراطية بجميع مذاهبها وأسلحتها الرأسمالية ، كما أن الشيوعية نفسها — وإن تكن عونا له ضد سحرته — هى أيضا عون لرذائله على فضائله ، فمصيره معها أن تدمر أعداءه وتدمره . الديمقراطية دواء غير ناجع ، والشيوعية سم ناقع ليس له من الدواء إلا المظهر ، بل هو مرض وبيل . فلا بد من تعويذة جديدة .

والإسلام يصلح أن يكون هذه التعويذة إذا أحسن المسلمون تنقيته من شوائبه ، والتمسك به ، وعرضه من خلال أعمالهم لا بأطراف ألسنتهم وأقلامهم ، لأن الأعمال ترجمان الإيمان القلبى والنبى يقرر ذلك « الدين المعاملة » وليتقدموا إلى المارد مؤمنين بتعويذتهم فى ثبات وإخلاص حتى يطمئن إليهم فيسكنوا ثورته ويروضوا جماحه . وليعلموا أن ذرة من الشك تتسرب إلى قلوبهم لا بد أن تحملهم على النكوص أو الضعف عند اللقاء ، أو الجزع عند البأساء ، والمارد إذا أحس من المعوذ أى ريبة أو تردد أو وهن لا بد أن يحطمه ويلتهمه .

وليعلم المسلمون أنهم إذا خابوا فى كبح المارد ، فلا فلاح لغيرهم فى كبحه ، ولا بد من ظهور تعويذة جديدة تكبحه لأن المارد لا يستغنى عن تعويذة تكفيه وتكفى غيره شره ، وإلا أسرع فى تخبطه حتى يردى نفسه . وإن الأمل فى كفاية الإسلام لعظيم ،

وإن كان دونه الأمل فى إقدام أهله على هذه المحاولة . وليتدبر أولو الألباب أن الحياة تحرص على الفرد ما دام صالحاً للحياة مهما يكن خطره ، وأن حرصها على النوع أشد من حرصها على الفرد مهما يكن خطره ، فالدين باق مابقى الإنسان ، وإنما تغيرت الأديان بتغير الأزمان . وما تفصل الآيات وتضرب الأمثال وتساق البشريات والنذر إلا لمن يعلمون ويعقلون .

ومما لاحظته أن الناس فى هذه الرقعـة من الأرض اليوم لاينفكون يربطون كل مافى الحيـاة من وجوه النشاط بالدين ، ولايتصورون أى حركة من حركاتهم ولاخلجة من خوالج سرائرهم ولا خطرة من خطرات عقولهم بمعزل عن الدين ، ولاشـك أن هذا عرض مرضى من أمراض فتور العزائم عن العمل الصحيح ، وكلل العقول عن الفهم المستقيم وتبلد المشاعر عن الإحساس الصادق كما يجب .

وقد كان هذا المسخ مسيطرا علىأوربا خلال «العصور الوسطى» حتى جاءت نهضتها الأخيرة التى شفتها من هذا المرض وأعراضه فيما شفت من أمراض . ونحن فى طريق النقاهة والشفاء من الأمراض التى أصابتنا خلال قرون الانحلال الأخيرة ، والأمل منوط بالنهضة الحاضرة إذا أطـَّرد تيارها ولم نصب بنكسة . هذامانقرره ونحن غير غافلين عن أن معظم الأنبياء قد نبغوا فى هـذه البقعة ، وأعظم الديانات بما فيها الديانات الـكتابية الـكبرى قد نبعت منها ، وفى

هذا مافيه من الدلالة على حاجة سكانها إلى الدين والمصلحين الدينيين في كل حال منذ أقدم العصور إلى الآن ، وأن الدين هو أعظم العوامل فى حياتهم ، وأنهم لاينهضون غالباً إلا وراء الدعاة الدينيين فليس عجباً أن يكون ذلك من أسباب اعتمادهم فى حياتهم غالباً على الدين: يلتفتون إليهم إذا عزوا كما يلتفتون إليه إذا هانوا ، ويتخيلونه سبب كل ما يصيبهم من رخاء وضيق ، ويسر وعسر .

إنهم قبل أن ينشطوا لعمل سلباً أو إيجاباً ، وخلال نشاطهم فيه وبعد فراغهم منه لاينفكون يسألون : ما رأى الدين فيه ؟ بل يلحفون فى السؤال إلحافا ثم يعاودون الإلحاف مراراً حتى يعرفوا مايرون أنه الجواب ، كأنما قد استوعبت دياناتهم كل مافى الوجود، وكأنما لم تغادر أسفارهم صغيرة ولا كبيرة فيما كان ويكون إلا أحصتها ولو فى شئون المعاش اليومية كالزراعة والملابس والمبانى والأدوية .

إنهم يبالغون فى تضخيم عامل الدين حتى يملأ أمام عيونهم فضاء السموات والأرض ، وينسخ كل عامل سواه ، وكأنه لا أثر فى الناس بزعمهم لكل مافى البيئة الطبيعية والاجتماعية من عوامل كالمناخ والجدب والخصب والأمطار والبحار والأنهار والأسرة والعرف وما إلى ذلك . فاذا حسنت لهم حال فمرجع ذلك فى زعمهم للدين وحده ، وإذا ساءت حال فالمرجع إهمال الدين وحده .

وإن الجهل بالعوامل الأخرى أو تجاهلها لوخيم العاقبة ، لأنه يحول دون وضع نظام صحيح صالح للمجتمع يتمشى مع حاجاته

وآماله ، ولأنه يجعل تجربة كل نظام لا يحسب للدين فيه النصيب الأكبر تجربة حائرة بائرة ، وهو فى الوقت نفسه يشكك الغيورين على الدين فى صلاحه لحكم المجتمع ، ويقدم لأعداء الدين أومن لا يرون فيه رأى المنزمتين — حجة على خطأ أنصاره ، ويغرى المترددين بين الأخذ به وتركه باليأس منه والانسلاخ عنه إنسلاخا تاما ، لاسيما عندما يرون رجاله عقبة فى سبيل كل إصلاح بل حرباً على كل إصلاح ، مع أن الخطأ فى تجاهل الدين تجاهلا تاما كالخطأ فى الاستغراق فيه استغراقا تاما وإفراده وحده بالسلطان وإهمال ما عداه من العوامل .

وإن التجربة المصرية لكفيلة بأن تنبه السادرين فى غرورهم وعمايتهم إلى مصيرهم ومصير الدين لو أنهم كانوا على استعداد للهداية .

فلقد حاول رجال النهضة المدركون لروح العصر وحاجات الأمة أن يجدوا عند رجال الدين ما يسد حاجتهم إلى التشريع والتقنين فلما رأوا تماديهم فى العمى ، ومقتهم للحركة النافعة ، وإباءهم مدّ الأمة بالتفسير الذى يساير تيار النهضة ويباركها ويوائم الحياة فى خطواتها الحضارية ، وشغبهم على كل إصلاح — لما رأى ذلك رجال النهضة استدبروا رجال الدين وما يرون ، وولوا وجوههم شطر أوربا يلتمسون عندها من التشريع والتقنين ما يساير النهضة كما فعل رجال الحرب والصناعة والزراعة والطب وغيرهم حين التمسوا وسائلها وأساليبها فى الأسلحة والآلات والتسميد والرى والعلاج ، ونماذج الملبس والمطعم والبناء والانتقال . . .

ولكيلا يثير رجال النهضة الغوغاء ومن لا يرتفعون عنهم من رجال الدين ، ولا يتركوا روح الأمة وضميرها وأخلاقها ومصالحها فريسة التحكمات التافهة — أقاموا بين شئون الأمة ورجال الدين سداً لاقبل لهم باجتيازه ولم يتركوا لهم إلا شقة ضيقة منها ، بل إنهم لايزالون يضيقون عليهم الحصار بعد أن أجلوهم عن سلطانهم الواسع إلى تلك الشقة ، ولايزالون يقلقون فيها مضاجعهم ، ويوقعون الاضطراب بين صفوفهم ، وبذلك تقلص سلطان التقاليد البالية عن حياة المجتمع المصرى كما تقلص سلطان الحكم الدينى .

ورجال النهضة وأشياعهم معذورون فى ذلك ، لعجز رجال الدين عن الإصلاح ، وجمودهم عن كل إصلاح ، بل توحشهم فى محاربة كل إصلاح ، ويكفى أن يكون الفساد عندهم مما أثر عن الماضى حتى يكون هو الإصلاح الذى لا يعلوه إصلاح ، كما يكفى أن يكون الإصلاح عندهم مما لم يؤثر عن الماضى حتى يكون هو الفساد بل الكفر الذى يطعن عندهم فى المروءة ويحل المال والدم ، ويوجب عذاب الله فى النار يوم القيامة .

وكان عليهم أن يجعلوا التدين مستندا للاصلاح وإسعاد الأمة وأخذها بأسباب النهوض بدلا أن يطلقوا صيحاتهم الناعبة كتاباً وخطباء ومفتين ليشغلوا الأمة بمهاتراتهم الجدلية الفارغة عن مصالحها الحقيقية ويشككوها فى شرعية نشاطها ومطالبها وآمالها ويمكنوا للفساد والظلم فيها ليزداد تأصلا ورسوخا ، ويحولوا بين

المظلومين المسخرين وأن يرفعوا أصواتهم ضد ظالميهم المستعبدين لهم إذ هم يصورون لهم زوراً أن كل صيحة لمظلوم فى وجه ظالمه هرطقة وكفر ، لأنها احتجاج على قضاء الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »

ولو كان الدين كذلك لكان لعنة ، ولو كان الدين كما يخرقون لكان الدين مصدر تعاسة ، ولكن الدين غير ما يفقهون و« يبغبغون » وإنه لمصدر غبطة واستقرار وتعاون بين الناس ، وثقة بالله والحياة البشرية ، فمن العجب أنهم يدعون أن تقاليدهم البالية هى الدين فينفرون الناس منه ، وهو منهم ومن أباطيلهم براء .

ومن أعجب العجب فى هذا الشرق التعس أن الناس لا يلجئون إلى الدين ، بل العقل والقانون والعرف أحيانا إلا لطلب التعويق عن النهوض ، وإضاعة الحقوق وتسويغ الظلم والكسل والخسة ، وقلما يلجئون إلى ذلك لإثارة النشاط وشحذ الهمم وتحريك الضمائر وتطهير القلوب وإطلاق العقول ، كأنما بعث الله الأنبياء بالأديان وألهم المشترعين الشرائع وأجرى العرف بين الناس ، ومنحهم العقول لتعطيل نشاط البشر وإغرائهم بالكسل والظلم والخسة .

وكأنما هذه القيم خطة مؤامرة محكمة الأطراف ضد راحة البشرية وكأن الله يأتمر بالعباد ليرديهم فى الشقاء والفساد . تعالى الله عما يظنون علواً كبيراً .

إنهم لا يذكرون الدين إلا ليقولوا دائما : لا ، لا . لا . ولا يذكرونه ليقولوا مرة : نعم .

إن هذه العوامل لا سيما الدين لم تقم أول أمرها — كما يظهر من تاريخها وأسبابها النفسية والاجتماعية والتاريخية — إلا احتجاجا على الكسل والجمود والخسة والظلم ، احتجاجا على تقاليد بالية قاتلة للنشاط البشرى وراحة الناس . إنها معيار جديد صحيح للأوضاع البشرية بدل معيار قديم زائف ، ومحور مكين سليم الوضع تدور حوله الحياة البشرية بكل ضروب نشاطها بدل محور ركيك مختل الوضع . إنها قوة تستجيش فى السرائر بواعث الإيمان والشعور والتفكير والعزيمة للعمل من أجل صالح المجتمع وليست بمرض يغيض هذه البواعث ويقعد الناس عن العمل الصالح .

وهذا الموقف المؤسف الشائن الذى يقفه حماة الدين أو حماة التقاليد الدينية على الأصح هو أعظم شفيع لرجال النهضات فى تجاهلهم أمر الدين ، أو أمر التقاليد التى يزعم حماتها أنها الدين ، وفى تخففهم من أثقالها كما حدث فى مصر .

وقد كان رجال النهضة فى مصر أرفق خصومة من رجال النهضة التركية الذين أخرجهم عن اتزانهم فساد الأوضاع الدينية واستعصاؤها على العلاج واحتضانها لكل فساد ، وإباؤها مهادنتهم ، فأنكروا الدين كله وجاهروه بالعداء فى غير تردد ولا لين ، ووطئوا رجاله وطئا ثقيلا ، وشردوهم وشردوا بهم من خلفهم فى الآفاق . بل حاربوا

ما اتصل بالدين كاللغة العربية بل الحروف العربية . وحاولوا أن يتجردوا من الشرق كله ، وإن خطأهم فى هذا لأدنى من خطل رجال الدين أو التقاليد الدينية فى تعنتهم ولؤمهم وغبائهم وحمايتهم لكل الأوضاع الفاسدة ، ومحاربتهم كل إصلاح — فعلوا ذلك باسم الدين فضيعوا أنفسهم وأضاعوه .

لقد مكنوا — باسم الإسلام وحده — لشرذمة من الخصيان والإماء وأشباه الرجال ذوى الحظوة من أن يستبدوا بأرواح عشرات الملايين من المسلمين وغيرهم فى دولة الأتراك ، ويستأثروا بمعظم أرزاقهم ، ويدوسوا رقابهم كما تشاء أهواؤهم الفاسدة ، وأوهموا الناس أن بلاط السلطان معقل الإسلام ولم يكن فى الحق إلا ماخورا ترتكب فيه أشنع الفواحش ، وأوهموهم أن السلطان حامى الإسلام ، وخليفة النبى أو خليفة الله وظله على الأرض ولم يكن إلا تيسا تدلله أيدى هؤلاء الفاسقين كما يشتهون ، ولا يريد إلا مايريدون فى عزلته عن الرعية ، ولم يكن القائمون على شئون الدين إلا شراذم من أدعياء العلم ذوى العقول المتحجرة والضمائر المتعفنة الذين لا يحسنون إلا تضخيم العمائم المقورة وإرخاء عذباتها المهفهفة وإسباغ الأقبية والجباب الطيالس الفضفاضة ، وإرسال اللحى حتى الصدور وكان أعوانهم طوائف الدراويش فى التكايا والربط والزوايا وأكثرهم مخنثون لا بالرجال ولا بالنساء ، وكل جهادهم فى الدين هز الأرداف وإمالة الأعطاف على نقرات الدفوف ورنين الصنوج

ثم إرتداء المرقعات وإطالة القلانس وتزجيج الحواجب وكحل العيون وكلهم من نفاية المجتمع التى لاتحسن من أمور الدين والدنيا إلا الدس والتجسس والتطفل وإغراء الناس بالعبودية والفساد ، حتى إذا جاء الكماليون مزقوهم شر ممزق : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وهذا الموقف المؤسف الشائن هو ماأدى إلى تصدع الكنائس فى أوربا منذ بدأت نهضتها الحديثة ، ومحاربة بعضها بعضا ، ومحاربة المستنيرين لها جميعا ، ثم الفصل الحاسم بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ، وإجلاء سلطان الدين عن كل مرافق الدولة ومحاصرته فى الكنائس والأديرة ، وكل ذلك أقسى وأبعد مما جرى فى مصر ، فليعتبر بذلك الغافلون .

ومن أعجب العجب أن يكون الأمر مع الإسلام خاصة كذلك ، مع أن فى صلب الإسلام — فضلا عن مناهج أتباعه المخلصين الأولين كالنبى وصحابته — طريقة تعديله وسد فجواته وتطويعه لتغير الأزمان والبيئات ، والإسلام يتفرد بين الديانات بخصائص تجعله صالحا لمسايرة الأحداث ، واستحداث ماينا سبها من تقدم ، أو عدم الوقوف فى سبيل التطور على الأقل ، وهذا مايجعل موقف الناطقين باسمه عجيبا بل مُريباً حين يأبون إلاّ الوقوف حيث وقف أسلافهم كأنما وقفت الكواكب عن الدوران ، أو تيار الحضارة عن الجريان .

للاسلام وحده خصائص تجعل موقف الناطقين باسمه هذا الموقف المؤسف عجيبا بل مريبا ، منها .

أولا : أنه أول دين أقر للانسان بالكرامة لمجرد أنه إنسان مهما أجرم ، ومهما بلغ من تفاهة الشأن ، ففى القرآن : « ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ومن أجل هذه الكرامة التى جعلها الله حقاً طبيعيا للانسان استحق أن يكون خليفة فى الأرض مع التسليم بما فيه من ضعف كما قدمنا ، فالإسلام يكرم الإنسان ويثق به .

ثانيا : أنه أول دين دعا إلى التوفيق بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، أو مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، ولم يحاب أحد الجانبين دون الآخر ، ففى القرآن : « وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبكَ من الدنيا ، وأحسنْ كما أحسنَ اللهُ إليك » . وفى الأثر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وقد اعتبر الإسلام كل عمل دنيوى نافع لإنسان ولو كان لشخصه أو قريب له طاعة أو عملا دينيا صالحا يثيب الله عليه .

ثالثا : أنه أول دين نظر إلى المجتمع البشرى كوحدة ، أو بنية حية إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ومن أجل ذلك جعل كل إنسان فى المجتمع راعيا ومسئولا عن رعيته ولو كان خادما ، ولم يعف من المسئولية أحداً ، قال

النبي : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى بيت سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

فليست المسئولية فى الإسلام وقفا على فرد دون فرد ، ولا طبقة دون طبقة ، والخليفة والخادم سواء فى مبدأ المسئولية ، وإن كان حظ هذا منها غير حظ ذاك ، لأن مناط المسئولية القدرة ، فكلما زادت قدرة إنسان زاد نصيبه من المسئولية ، وكلما نقصت نقص ، فهو لم يجعل أنصبتهم سواء فى المسئولية لتفاوتهم فى القدرة ، فمن العدل أن يتفاوتوا تكليفا . وإذ لا مسئولية بلا حرية أطلق الإسلام الحرية لكل إنسان فى عمله فى حدود المصلحة البشرية ، وإنّ الحرية الصحيحة هى حق الإنسان فى أداء واجبه كما يشاء على مسئوليته ، وهذه هى الحرية فى الاسلام ، وكل إنسان يحاسب على قدر عمله إن خيراً وإن شراً : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . و « لا تزر وازرة وزر أخرى » . فلا يعفى الإسلام إنسانا من جرائر تقصيره ولا يرفع إنسانا كائنا من كان عن المسئولية ولا يخفضه عنها إلاّ إذا كان قاصرا عن حملها .

وهو مثلا مع اعترافه بالملكية — كما يجب وكما يتمشى مع الفطرة البشرية كعادته — قيد كل مالك بالتزامات حيال نفسه

وأسرته ومجتمعه ، فالمال مثلا حق الجميع وإن كان فى حوزة فلان أو فلانة وفى القرآن : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وفيه : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » وتوعد الأمة جميعاً بالعقاب إذا لم تعرف المعروف وتنكر المنكر ففى القرآن إشارة إلى لعنة طائفة من بنى إسرائيل « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وفيه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقال النبى : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده » وقال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

فالإسلام يرى أن الإنسان لا تتم سعادته حتى تعم سعادة المجتمع ولا يمكن أن يستريح بصلاحه والمجتمع من حوله فاسد . واستنكار المنكر بالقلب لا يجوز مع استطاعته باللسان ، واستنكاره باللسان لا يجوز وفى الطاقة تغييره باليد أى بكل ما يملك الإنسان من عدة وسلاح ولقد قال النبى : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فلا يجوز أن يعطى الإنسان الدنية فى دينه ولا دنياه إلا أن يعجز عجزاً مطلقاً عن تغيير المنكر ويستنفد وسائله فى مقاومته ، فإذا عجز لم يجز له السكوت والبقاء ، بل عليه أن يهاجر من موطنه إلى موطن خير منه ولا يعفيه من واجب الهجرة إلا العجز المطلق عنها فإذا لم يهاجر فقد حقت

عليه اللعنة وباء بإثم بقائه بين الفاسقين ، ففى النساء : « إن الذين توفاهم الملائـكة ظالمى أنفسهم ، قالوا . فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تـكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ، ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما » وفيها : « ومالـكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنامن هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » فمن عجز عن الإصلاح فى وطنه وعن الهجرة معا فسبيله الإنـكار بالقلب على أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان ، وهذ أحط مراتب الإيمان ومراتب المروءة والـكرامة ، وهذا وقوع فى المحرم لا شفيع فيه إلا الضرورة مثل أكل الميتـة ، وكل أثر الضرورة رفع الإثم عن الواقع فى الحرام « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » وليس من أثر الضرورة أن تجعل القبيح حسنا .

والأمة ملعونة جميعا إذا ظلم فيها إنسان حقا فلم تنصفه وهى قادرة على إنصافه ، أوجاع فيها أحد فلم تسد جوعته ، أو أصابته مصيبة تستطيع دفعها فلم تدفعها عنه وتهونها عليه ، ولا تقتصر اللعنة على الحكام ونحوهم من العلية دون العامة بل تشملهم جميعا وإن كان نصيب كل من الوزر على قدر نصيبه من القدرة على دفع البلاء واجتلاب المنفعة .

ورابعا : أن الإسلام دين عالمى بل هو أول دين عالمى ، وقد اعتبر المجتمع متعاونا متكافلا فى الشر والخير وقد جاء منذ جاء للبشر كافة على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومراتبهم وأزمنتهم وأمكنتهم ، ففى القرآن : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » واعتبر الإسلام النبى محمداً خاتم النبيين ، والدين الذى يكون عالميا وخاتما للأديان يجب أن يكون صالحا للناس مهما اختلفوا وتبدلت بهم الأحوال والأزمان ، فلا يضيق بجديد ولا يحجر عليه ما دام فيه مصلحة خاصة أو عامة أو لا يتعارض معها ، فالناس وبيئاتهم ، والناس وأزمنتهم ، والناس وعرفهم ، والناس وما يرونه خيراً لأنفسهم ما دام فى ذلك صلاح الفطرة البشرية لأن الإسلام كما يرى نفسه هو دين الفطرة « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

فهو قائم على الفطرة والفطرة ثابتة ما بقى الإنسان إنسانا ، فالإسلام إنما تعنيه صحة هذه الفطرة الباقية وسلامتها كيفما تبدلت الأحوال ،

فالفطرة هى الجذر الثابت الدائم وماعداها ففروع أو مظاهر مستمدة من هذا الجذر وقائمة عليه ولا عبرة مع بقاء الأصل بتغير الفروع واختلاف إتجاهاتها وأشكالها باختلاف الأحوال . ومن أجل ذلك لم يلزم الإسلام الناس بشىء إلا تصحيح هذه الفطرة والمحافظة على سلامتها ، وترك ماوراء ذلك للناس يرون فيه لأنفسهم مايرون على مسئولياتهم كما جاء فى الأثر « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقد سن لهم فى مطلعه أمورا رآها تحقق صلاح الفطرة وسلامتها فى البيئة التى نجم فيها ، ولم يكن بد أن يسنها لنقص التشريع والتقنين والعرف فى الجاهلية عن إرضاء الفطرة ، وأقر فى هذا السبيل ما أقر من آداب وعادات لم يجد فيها مايتهدد سلامة الفطرة فى تلك البيئة ، ولم تكن هناك ضرورة لإنكارها ، أو كان إنكارها يعرض البناء الاجتماعى كله لزلزال يدمره تدميرا ، بينما هو يحتاج فى إصلاحه إلى أسس مسلمة فى تلك البيئة ليقرب الشقة بينها وبينه ، دون أن يوقع الذعر فيها حين يفاجئها بنظام جميع مافيه غريب عنها كل الغرابة . وليس من شأن المصلح الحكيم أن يتعجل الإصلاح تعجلا يفسد عليه أمره ، أو يضر بمن يحاول إصلاحهم ، ولا من شأنه أن يتهجم على تغيير الأوضاع إلا فى أضيق الحدود وبكل أناة وحذر ، وإلا أوقع الاضطراب بين الناس ، وأثار فيهم التحدى والعناد والوحشة والنفور ، وكان عامل هدم لايبقى ولايذر . ذلك لأن الإصلاح مقيد بالطاقة البشرية .

والبشر ليسوا حجارة ترص كما يشاء المصلح ، ولا المصلح أيًّا كان شأنه إلهاً يقدر على خرق النواميس أو تعديلها ، أو يقول للبشر : « كونوا » فيكونون .

خامساً : أن الإسلام أول دين دعا إلى تحكيم العقل واعتبره الفيصل فى مُشكل الأمور ، وجاءت تعاليمه مجملة تدع للناس أن يعملوا عقولهم لوضع التفصيلات التى تناسبهم ، حسب مصلحتهم التى تختلف باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، وهذه الخصيصة التى انفرد بها الأسلام بين الأديان تسد كل فرجة وتستدرك كل فوت ، لاسيما إذا لوحظ أن هذه الخصائص يتمم بعضها بعضا ، ويمكن بعضها لبعض ، وحسب الإسلام أن من مزاياه التى انفرد بها نهوضه بالعقل ، وعدم وقوفه به عن العلم والفلسفة والاحتيال لمعايش البشر ، ومسايرة الحضارة فى تقدمها ، بل الإسلام يحض على كل ذلك .

دعا الإسلام الناس إلى أن يتفكروا فى أنفسهم وفى خلق السموات والأرض وما بينهما وما عليهما مهما جل أو دق ، وجعل العقل وسيلة إلى الإيمان لا سدا دونه ، وهاديا إلى علامات وجود الله وقدرته وحكمته وعنايته بالكون ، والثقة بفضله والاطمئنان إليه ، وتبين مواضع العبرة فى أنفسنا وكل ما يطيف بنا من موجودات ، لذلك توجه فى كل خطاب إلى العقل ، وامتنَّ عليه بالعلم وقد كان أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذى

خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وتوالت آيات القرآن تحض على الاحتكام إليه دون الأهواء ودون تقاليد الآباء ، ودون التواكل على مذاهب السادة والكبراء ، ففى القرآن : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » وفيه « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » وفيه « هو الذى جعل لكم الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » وفيه « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار » وفيه « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وفيه « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » وفيه عن القرآن « إن هو إلا ذكر للعالمين » وفيه «وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ،

إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وهناك عشرات الآيات على هذا النحو تدعو العقل إلى النظر فى عالم الطبيعة ، و كذلك هناك كثير من الآيات التى تدعوه إلى النظر فى عالم النفس ، ففى القرآن « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفيه : « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » بل لم يكتف الإسلام بذلك بل دعا إلى النظر فى عالم التاريخ وأطوار الاجتماع ، وأمر بالسياحة فى الأرض لا للكسب فقط « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » بل للتعلم والاعتبار ففى القرآن « قل سيروا فى الأرض » وفيه : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ونحو ذلك من الآيات التى تدعو إلى النظر فى أحوال القرون الغابرة والأمم البائدة .

ومن فرائض الإسلام الحج ، وأهم مزاياه السياحة و التعارف والمذاكرة وتبادل المنافع المادية والثقافية بين المسلمين ، ووقوف بعضهم على أحوال بعض ، وفى كل هذا تثقيف وحفز للعقل على النظر والمقارنة ، وإن التعلّم عن طريق السياحة والاتصال المباشر بما يراد علمه هو خير أنواع التعلّم ، وعليه يعتمد الأمراء والملوك وأشباههم من العلية فيفيدون من المعرفة فى فترة مالا يفيده غيرهم فى فترات على أن معرفتهم أصدق وأكثر إثارة وإحكاما للعقل ، وأعظم تكوينا للملكات العقلية .

ودعا إلى رحلة طائفة من كل فرقة إلى حيث يتفقهون ليكونوا مصدر هداية لقومهم إذا عادوا إليهم : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وهذا النوع من التخصص فى الدين كسائر أنواع التخصص فى شئون الدنيا من الحرف والصناعات كالحياكة والصباغة والتطبيب والتعليم والزراعة مما لاغنى عنه للمجتمع .

ويجب هنا أن نشير إلى أمور لامفر من ذكرها إحقاقا للحق ، وتصحيحاً لما قد يخطر على البال من أوهام فى موقف الإسلام من العقل حتى لا نكون محابين ولا مقصرين :

فأولها : أن الإسلام — كما تدل نصوص القرآن وأحاديث النبى — إنما يستجيش العقل لغايتين : الأولى التماس أدلة الإيمان والثانية العمل الصالح .

لم يدع الإسلام العقل لينطلق فى النظر كما يشاء ، فيلتمس أدلة الشك وأدلة الإنكار والبراهين فى جانب الإيمان والبراهين ضده ، ولم يدع إلى التعقل لمحض النظر ، بل ليدبر الناس بالعقل أمورهم المعاشية ويعتبروا بما وقع لغيرهم من الصالحين والطالحين .

وهذه الدعوة هى الدعوة الواجبة من ناحية التشريع البشرى العام ، وهى أيضا الدعوة التى لاينبغى سواها لدين يحاول أن يبنى نظامه الإصلاحى على أساس الضمير فى أعمق أغوار النفس

البشرية وحفزه عن طريق الإيمان بالله لا النظر المجرد ، وعلى أساس نشاطه الحيوى وإثارته لاستفراغ قواه فى العمل الصالح لا التردد والكسل .

أما ترك العقل طلقا من كل قيد يثبت أو يشك أو ينكر كما يشاء فقد يستساغ من العلماء والفلاسفة لأنهم يخاطبون طائفة خاصة ويعالجون جانبا من المعرفة خاصا ، ولكنه لا يستساغ من الأنبياء ومن على شاكلتهم من المصلحين الذين يخاطبون العلية والدهماء ويعالجون حياة المجتمع من جميع نواحيها أو من جميع أصولها النفسية والاجتماعية على الأقل .

وثانيهما : أن الإسلام — لالتزامه الفطرة البشرية — لم يحاول تحريك العقل وحده ، ويجعله معتمده المفرد فى الإصلاح ، بل حاول استجاشة كل بواعث الإيمان والعمل فى السرائر الإنسانية فخاطب العواطف الكريمة والأخلاق السامية ، واستعان بكل مافى المجتمع من طيب العادات والتقاليد والقصص والأماثيل المعروفة التى فيها عبر للناس ما دامت تهدى إلى الخير وتحث على الصلاح ، أو تبعد من الشر وتنفر من الفساد ، واعتمد كثيراً على التبشير والانذار ، فالترغيب والترهيب من أساليب الدعوة لأن البشر ليسوا جميعاً بملائكة ولا بشياطين ، وليسوا جميعاً علية ولا دهماء ، والانسان ليس على حالة واحدة فى يومه فضلا

عن عمره ، والقرآن يفسر ذلك أوضح تفسير « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

من أجل ذلك عرض الأمثال الطيبة من الأنبياء وغيرهم من الأبرار السابقين وتولاهم جميعاً ، وسمى بعضهم «مسلمين» وعدهم أبطال هداية ، ليعتبر بهم الناس فيذعنوا لدعوته ، ولم يعرضهم كما تعرضهم كتب التاريخ بذكر حقائقهم التاريخية ومالهم وما عليهم على السواء ، وما كان ينبغى لدعوة هداية إلا أن تكون حاسمة وإلا أن تقتصر على ذكر الجوانب التى تغرى بالهداية دون أن تذكر المآخذ التى تغض من قدر الأمثلة قليلا أو كثيراً ، لأنها قد تغرى بالفتور والكسل فى وقت يجب فيه العزم والحسم ، وما كان للانسان مصلحاً أو مؤرخاً أو عالماً أو غير ذلك إلا أن ينظر إلى الشىء من الزاوية التى تعنيه وتوضح فكرته ، دون الإحاطة بكل الأطراف . وهكذا عرض الاسلام النماذج السيئة أيضاً لتنفير الناس من الاقتداء بها . وإن كل ما يعنى الإسلام فى الأمثلة الحسنة والسيئة التى عرض لها هو العبرة للعمل ، أما ماوراء ذلك فقد يعنى غيره ممن لهم أغراض غير غرضه ، ولكنه لا يعنيه هو لأنه ليس من غرضه .

تولى الإسلام الأنبياء السابقين جميعاً وكتبهم ودياناتهم ، ففى القرآن مثلا « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

وكذلك تولى غير الأنبياء من القديسين والقديسات كلقمان والرجل الصالح صاحب موسى ومريم وحواريي المسيح كما تدل نصوص القرآن، وتولى المتدينين جميعاً على اختلاف أديانهم ماداموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً ففي البقرة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكتب النبي إلى عامل له في اليمن « من كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يفتن عنها » .

ولقد جاهد الإسلام ليؤكد أنه دين محافظ ، وأنه ليس ثائراً على الأديان ولا مكذبا بها ولا ناقضاً لها ، فقرر أن الإنجيل مصدق للتوراة ، وأن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل وأنه « دين إبراهيم » بل دين نوح وسائر الأنبياء « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً » ، ومن توكيده لدعواه في المحافظة أنه احتكم مع المختلفين معه من اليهود إلى التوراة ، ومن النصارى إلى الإنجيل ، وبين أن المخالفين له إنما يتبعون أهواءهم ، ويخالفون توراتهم وإنجيلهم ويحرفون الكلم فيهما عن مواضعه بتأويلاتهم المغرضة، وإلا فلا على من شاء منهم أن يحتكم إلى التوراة والإنجيل.

وفي المائدة في شأن موسى وقومه : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة

وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ،

وفى المـائدة « ولو أن أهل الـكتاب آمنوا واتقوا لـكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون » وفيها « قل يا أهل الـكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » .

وفى التوبة تعليل لبعض أسباب السخط عليهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلـهاً واحداً لا إلـه إلا هو » .

وفى الجمعة مثل ذلك « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

وأنـكر ادعاء اليهود من عند أنفسهم الاستئثار بولاية الله دون غيرهم مع أن الله مولى الناس جميعا ، فنى الجمعة « قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

ومن أسباب سخطه عليهم تزييفهم الشريعة عمداً مع سوء النية بالوضع أو التأويل أو الـكتمان ، فنى البقرة « فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وفى آل عمران : «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » .

وفى النساء « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع، وراعنا(١) ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ، يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ».

وفى المائدة : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ».

وقد نعى عليهم توليهم الوثنيين من أهل مكة حين سألوهم ديننا خير أم دين محمد ، ففضل اليهود دين المكيين الوثنى على الإسلام مخالفين بذلك دينهم وهو كالإسلام يوجب عبادة الله وحده .

---

(١) للكلمة « راعنا » مصدران : الرعاية والرعونة ، ففى قول اليهود للنبى « راعنا » تورية ، ومعناها القريب فى العبرية والعربية « انظرنا » من الرعاية ، وهم لا يريدون ذلك ، والمعنى البعيد « أرعن » من الرعونة وهى الطيش والحمق ، وهو ما يقصدون للسخرية من النبى ، ولكى يزول اللبس نهاهم القرآن عن استعمالها فقال « لا تقولوا : راعنا ، وقولوا : انظرنا » :

فالإسلام محافظ لا ثائر ، وغضبته على اليهود وغيرهم لثورتهم على شرائعهم وكتبهم ، فهو يدعوهم إلى المحافظة عليها بإظهارها كما هي وفهمها كما يجب ، ولا يدعوهم للثورة عليها ، فالإسلام محافظ في صميمه ولا يثور إلا على الثائرين .

وثالثها : أن الإسلام — لالتزامه الفطرة ، وتحكيمه العقل ، مع استعانته بكل ما في السرائر والبنية الإنسانية من بواعث الإيمان والنشاط العملي — لم يعتمد في الدعوة إلى اعتناقه على المعجزات ، ولم تكن له إليها حاجة من أجل ذلك ، وسار في أصوله وفروعه وأساليبه وفق المعروف المألوف من مواضعات الاجتماع البشري فيما يأخذ وفيما يدع ، فلا تلبيس هناك ولا تهويل ولا لغز ولا سر ، والنبي نفسه لم يدع لنفسه امتيازا إلا الوحي ، ولم يعتمد في دعوته على خرق سنة نفسية ولا سنة اجتماعية ولا سنة طبيعية ، بل اتخذ السنن الكونية سننه ، واعتمد عليها ، وبها وحدها أفلح وبغيرها لم يفلح ولم يدّع فلاحا ، بل وقف من المعجزات موقف اليائس من فلاحها في هداية البشر إلى الإيمان ، وبلغ من ذلك أسمى مما بلغه الإنجيل الذي سار شوطا بعيداً في هـذا الطريق ، وهذا ما لا يتسع المجال هنا للافاضة فيه .

وحسبنا أن نشير إلى أن الإسلام — لجريه على المألوف المعقول من أمور البشر — أكّد وكرر التوكيد بأن الهداية والضلال من الله ، وأنهما قائمان على استعداد السرائر لهما ، وأنهما من مراحل

نضوج النفس البشرية ، وأن غير المستعد للهداية لن تفلح الآيات في هدايته ، والمستعد لها يكفي أن توضح له طرقها ليهتدي من غير حاجة إلى أي آية . وأن الآيات الحقيقية في نظر القرآن وفي نظر العقل المستقيم هي نواميس الوجود الطبيعية والنفسية والاجتماعية ونحوها ، ومنها وحدها تستمد مسوغات الإيمان ودواعيه. وفي هذه النواميس وما يصاحبها من الإعجاز أضعاف ما يتوقع طلاب الآيات من ذوي الأذهان الأسطورية ، وما من حركة ولا سكنة في الوجود إلا هي معجزة في نظر ذوي البصائر الملهمة وهم وحدهم المعول عليهم لاستعدادهم اللدُني والكسبي لإدراكها .

ونصوص القرآن ودخول الناس في الإسلام تؤيد ما وضحته هنا كل التأييد ، وترفع كرامة الإنسان وبصيرته وعقله عما لا يليق به من عبث ، فأساس تغيير الأحوال هو الاستعداد النفسي والاجتماعي ، ففي الأنفال : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وفي الرعد « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وإنّ مصدر الهداية والضلال هو الاستعداد وهو من الله، والاستعداد والقدرة مناط التكليف والإيمان ، وكل إنسان واستعداده ، وكل إنسان وعمله وهو مأخوذ به ، ففي الطلاق : «لا يكلف الله نَفْساً إلا ما آتاها » وفي الإسراء : « من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولا ، وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وفيها « قل كل يعمل على شاكلته » وفى يونس « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » وفى هود : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ونحو ذلك من عشرات النصوص المنثورة فى سور مختلفة . والآيات لا تغنى شيئا مع العمى والعناد ما دام الله لم يعد الإنسان للهداية ففى الأعراف : «من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » وفيها : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . ومما يؤيد عجز الآيات عن الهداية : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » و « قالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » وفى الأنعام : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . . . ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـذا إلا سحر مبين » وفيها : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .

وإن مجرد طلب إنسانٍ من نبى آيةً على نبوته لسذاجة صبيانية ، ودليل جهله المطبق بمعنى النبوة والآية معاً ، فالنبى داعى صلاح ومبعث نهضة روحية ، فحسبه أن يكون كفواً بشخصيته للاصلاح

والإنهاض ، محلا لثقة الناس بأمانته وصدقه وكفايته ، مفطوراً على الزعامة الأبوية بقوته ورفقه وجاذبيته ، وأن يكون صاحب دعوة صالحة ملائمة لمن ينهض بينهم عارفا بعصره وجيله ، واعياً لطاقة من حوله وحاجاتهم وآمالهم ، مؤمنا متمسكا بما يدعو إليه فى سلوكه ، شجاعا فى الحق كما يراه ، لايبالى فى سبيل دعوته بلاء ، وهو بذلك يكون قادراً على أن يجـذب حوله أهل الأريحية والمستعدين للصلاح . ولا صلة بين دعوة النبى والآيات المنتظرة كأن يكون له كنز أو يؤيده ملك أو تكون له جنة يأكل منها . فمن طلب المعجزات الصحيحة فأمام عقله فى كل لحظة ملايين المعجزات .

وبعد فهـذه حجج ناهضة على اتساع أفق الإسلام لأطوار الاجتماع واستعداده للتدرج مع درجات الحضارة ، وأنه لايعيا بما يحمل ، وأن من يحتكرون التحدث بلسانه هم الذين يصدون عن سبيله ، وأن هـذا الاحتـكار أمر يأباه الإسلام نفسه ، وأن مايزعمونه دينا هو مجموعة تقاليد رثة تراكمت على جوهر الدين خلال عصور الانحطاط الماضية كما يتراكم الصدأ لأسباب يطول شرحها ، وأن الحجر على عقول الناس وحرياتهم الطبيعية والاجتماعية وتمكين بعضهم من رقاب بعض باسم الدين من أفحش ما يبتلى به الدين والناس من نكبات ، وأن الدين للناس جميعاً ، وأنه إنما جاء لمصلحتهم ، وأن مناطه وسنده هذه المصلحة ، وأنه قائم على الفطرة فما أصلحها فهو منه وما أفسدها فليس منه ، وأن

الدين ليس بيده سيف يقيم به نفسه بل يقيم قواعده البشر. وهم إن صلحوا صلح لهم، وإن فسدوا أفسدوه، وأن الأخلاق من وراء الدين، والعبرة بها لا به، وأنه صورة لها، فإذا أعانته من ورائه أقامته وإذا تخلفت عنه عجز عن القيام، وأن المعول عليه هو المتدينون لا الدين، لأن الدين يتشكل عند كل إنسان حسب شخصيته، والأديان تسعد وتشقى بأهلها، وعلينا أن نعلم — ونحن ندعو إلى اتخاذ القرآن والسنة دستورنا — أن المعول عليه فى الحكم هو المنفذ للقوانين لا القانون نفسه، وأن الحكام الصالحين يفسدون إذا ضعفت رقابة المجتمع أو كانت أخلاقه فاسدة، فهذه إنجلترا يسيرها دستور وضعى غير مكتوب وإن حال شعبها لخير ألف مرة من حال شعب فى الشرق يدعى رجاله أن دستورهم القرآن والشعب لا يجد عيش الكلاب، وإن يزيد بن معاوية مثلا حين قتل زبانيته الحسين ابن بنت رسول الله وأوطئوا الخيل صدره وجزوا رأسه وطافوا بها فى الآفاق فى فجر الإسلام تحت أعين كثير من صحابة النبى وأبنائهم — لم يكن دستوره إلا القرآن لا قانونا من وضع بشر، وكان يعتقد أن الحسين يستحق القتل وأنه كما قال « أُتى من فقهه » ولنعلم أننا لن نستطيع تطبيق القرآن حتى نكون أهلا له، فإذا لم نبلغ هذه المرحلة من النضوج فلن نكون أهلا لاتخاذ القرآن دستوراً وإلا كذبنا الله ورسوله، إذ ليست للقرآن يد تبطش بالفاسقين وإنما الرجال هم الذين يردون المعتدين عن العدوان.

أما بعد فهذا نذير للناس أجمعين ، فلابد من رسالة ترضى حاجة العالم فى اتجاه شعوبه نحو الاتحاد ، وحاجة البشرية فى اتجاهها نحو الكرامة الإنسانية والحرية الفردية إلى جانب تحقيق العدالة الإجتماعية فى كل أمور المعيشة ، فإذا لم تحقق الدعوات القائمة هذه الغاية لم يكن بد من ظهور دعوة جديدة ترضى « العالمية » وتفسرها وتحفظها ، ولن يكون مصدرها إلا الضمير البشرى فى طوره الجديد ، وعمادها الثقة بالإنسانية ، وستكون « صوت الانسان فى الأرض » وستكون لها أماثيلها ومجازاتها المناسبة الآن ، لأن البشرية لاتستغنى عنها بحكم الفطرة وإن اختلفت صورها والمستقبل يتمخض عن طور بشرى « عالمى » لابد له من دستور عالمى . ولن يصلح لذلك بين الرسالات القديمة إلا الإسلام القرآنى .

وعلى الذين ينعقون فوق الأطلال الخربة مغترين بأساطيرهم منذرين بقرب القيامة أن يعلموا أن بيننا وبين القيامة كما يتصورونها ربوات القرون « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »

نعم هناك قيامة تقترب مسرعة منا ، ولكنها قيامة من عالم الحياة لا من عالم الموت ، وهى طراز لاعهد للبشرية بمثله إذ لاعهد لها بطورها « العالمى » الحاضر ، ولن ينجو فى هذه القيامة إلا المتأهبون لأزماتها بالإيمان والعمل الصالح : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

كوبرى القبة — محمد خليفه التونسى